

دروس في الأخلاق

لجنة التأليف في
مركز طيبة للفكر والمعرفة

مراجعة اللجنة العلمية في موقع مقالات



هوية الكتاب

اسم الكتاب..... دروس في الأخلاق
تأليف..... لجنة التأليف في مركز طيبة للفكر والمعرفة
مراجعة..... اللجنة العلمية في موقع مقالات
الطبعة..... الأولى - ١٤٤٨هـ
المطبعة..... دار البذرة

النجف الأشرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وجعل النفس الإنسانية أمانة عظيمة في يده، وجعل تهذيبها وبناء شخصيتها المتوازنة من أهم مقاصد الحياة، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، الذين أخرجهم الله تعالى رحمةً وهدى، وجعل نورهم مناراً يضيء طريق الإنسان إلى الكمال الإنساني.

ستكون البحوث مختصرة بما يتيح للأستاذ الذي يلقي المادة شرحها للطلبة وإضافة ما يراه مناسباً خلال المحاضرة، وتركنا التفاصيل عمداً، إذ إنّ كلّ عنوان يحتاج إلى عشرين صفحة أو أكثر لبيانها الكامل، وقد أضفنا في بعض المواضع موارد تطبيقية تسهّل على القارئ استيعاب المعاني وفهمها عملياً.

وجاء هذا الكتاب ليقدم رؤية لأبعاد الأخلاق في حياة الإنسان، بدءاً من الثقافة الإسلامية وفهم القرآن الكريم كمدرسة للحوار والحكمة، وصولاً إلى معالجة الصعوبات النفسية والسلوكية، وتقديم أساليب عملية لتقوية الشخصية وترسيخ القيم، مع التأكيد على دور الأسرة والمجتمع في حماية الإنسان من الانحراف والاضطراب.

٤ دروس في الأخلاق

ويهدف هذا المنهاج الأخلاقي إلى صقل النفس الإنسانية، وإكساب القارئ القدرة على الجمع بين العلم والعمل، وبين الوعي الرسالي والسلوك اليومي، بحيث تصبح الأخلاق جزءاً حياً وفاعلاً في حياته، ومنهجاً لبناء جيل مؤمن بصير، قوي الإرادة، راسخ الخطى، عامل بما علم، ومتوجه إلى الله سبحانه في كل قول وفعل.

ونسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله لبنة صالحة في بناء جيل واع بصير، راسخ الخطى، من أبناء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وذخراً لنا يوم نلقاه، وأن يملأ به قلوب شبابنا يقيناً وسروراً، ويدخل به الرضا والسرور في قلب الإمام الحجة عليه السلام.

لجنة التأليف

مركز طيبة للفكر والمعرفة

الدرس الأول

الثقافة الإسلامية والثقافة الاستهلاكية في عصر المعلوماتية

الحمد لله الذي ابتدأنا ونختم به، ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية، الذي نورّ بالقرآن دروب الحائرين، وجعله شفاءً لما في الصدور، ورحمةً للمؤمنين، ونوراً يهدي السائرين في ليل الفتن، نحمده حمداً يوازي فضله، ونستعينه استعانة المخلوق الضعيف، ونستغفره استغفار المنيب الخاضع، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله، المبعوث رحمةً للعالمين، وداعياً إلى سبيل مستقيم.

إنَّ من أعظم ما يعصف بالإنسان في هذا العصر المزدهم بالصور والمعلومات، والمثقل بضجيج الشاشات وتزاحم المغريات، ذلك الصراع الخفي العميق الذي يدور في داخله بين ثقافتين متباينتين في الاتجاه والمقصد:

الأولى: ثقافة ربّانية سامية، تعيد الإنسان إلى جوهره، وتربطه بخالقه، وتدعوه إلى السمو بروحه، وتعلي منسوب وعيه وبصيرته، فتشعره بقيمته عند الله، فيعيش لله، ويهتدي بنور الحق، ويحفظ قلبه من تلوّن ضجيج الدنيا وزخارفها.

والثانية: ثقافة مادية استهلاكية، لا تخاطب الروح ولا العقل، بل تغوي الغرائز، وتجرّ الإنسان بخفاءٍ إلى بريق الأشياء، حتّى يتحوّل تابعاً لرغباته، منقاداً

٦.....دروس في الأخلاق

لما يُعرض عليه، غارقاً في طوفان من الصور والإعلانات والمحتويات التي تعيد تشكيل نظرتَه إلى الحياة دون أن يشعر، فتفقدَه بوصلته وتبعده عن رسالته.

لقد بلغنا زمناً لم يعد الإنسان فيه يطلب المعلومة، بل صارت المعلومة هي التي تطارده، تتسلَّل إلى هاتفه وغرفته ووقته، تحاصر وعيه، وتلَوْن رأيه، وتوجّه أهواءه، حتّى يغدو أسيراً لما حوله، ينساق وراء ما يُعرض عليه دون وعيه.

وقد حذرنا أهل البيت عليهم السلام من الانصياع للهوى، فقد روى عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قوله: «لا تدع النفس وهواها فإنَّ هواها [في] رداها وترك النفس وما تهوى أذاها، وكف النفس عما تهوى دواها»^(١).

وهذه الرواية تبيِّن بجلاء ضرورة ضبط النفس ومراقبة الأهواء، فاتِّباع الهوى يقود إلى الضلال، بينما كفَّ النفس عما تهوى ويؤذيها هو سبيل الهداية والرشاد، وهو ما يحتاجه الإنسان في هذا العصر المزدهم بالمغريات والمعلومات المتسارعة.

فالرواية واضحة: من يترك نفسه لهواه يضل، ومن يكفّها عن ما تريده وتؤذيها يهتدي.

وهذا ما يحتاجه الإنسان اليوم، وسط سيل التكنولوجيا والمغريات، كي يحفظ نفسه ووعيه، ويثبت على جادة الحق.

وليس الهوى اليوم مجرّد رغبة مكشوفة، بل أصبح يتخفّى بأشكال جديدة:
- محتوى جذاب.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣٣٦.

- صور براءة.

- رسائل لامعة.

- وشعارات براءة تخاطب أعماق النفس تحت عبارة: (لأنك تستحق).

ويأتي القرآن الكريم ليضع الأساس الراسخ للثقافة الإسلامية، ويهدي الإنسان إلى طريق السعادة والرشاد، فيقول (جَلَّ شَأْنُهُ): ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦).

وهكذا تنساب الثقافة الاستهلاكية إلى النفوس برفقٍ ونعومة، تغير أولويات الإنسان، وتبدل ميزانه، وتجعل قيمته بما يملك لا بما يكون، وتدفعه إلى اللهاث وراء المزيد، دون أن يتوقف عند الأسئلة الكبرى في الحياة:

أين أنا من غايتي؟

أين أنا من رسالتي؟

أين أنا من الله؟

إنَّ الثقافة الإسلامية ليست مجرد معلومات تُقرأ، ولا محاضرات تُستمع، ولا نصوص تُحفظ فحسب، بل هي منهج حياة متكامل، وبناء روحي عميق، وتربية وجدانية تنير الطريق.

ثقافة تُعلِّم الإنسان أن يضبط ضميره قبل عقله، وأن يوجِّه نيَّته قبل عمله، وأن يحدّد هدفه قبل كل خطوة.

ثقافة تُريد للإنسان أن يكون كائناً كاملاً، إنساناً حقيقياً، لا مجرد رقم، ولا متابع، ولا نسخة مقلدة من الآخرين.

٨.....دروس في الأخلاق

وفي المقابل، فإنَّ الثقافة الاستهلاكية ثقافة تُعيد تشكيل الإنسان من الخارج، تُقنعه أنَّ قيمته تقاس بما يلبسه، ويحمله، ويظهره للناس، لا بما يحمله قلبه من تقوى، ولا بما يخترنه عقله من نور وفكر.

في الثقافة الإسلامية:

قيمة الإنسان بما يقدم من خير، وبما يتحلَّى به من خلق.

أما في الثقافة الاستهلاكية:

قيمة الإنسان بما يملك ويعرض، وما يلتقطه من إعجابات واهتمام الناس.

وفي الثقافة الإسلامية:

السعادة ثمرة القرب من الله، ورضا النفس بما عنده، وطمأنينة القلب بما هو خير للإنسان.

أما في الثقافة الاستهلاكية:

السعادة سلعة تُشترى، لحظة تُلتقط، صورة تُنشر، إعجاب يُحصَد، لكنها سرعان ما تتبخَّر وتترك فراغاً.

ولذلك نرى شباباً وفتيات يركضون خلف السراب الرقمي، يحاولون صناعة صورة مثالية لأنفسهم، بينما قلوبهم تبحث عن معنى لم يجده في كثافة المحتوى.

وهنا يكمن الخطر الأكبر: أن يفقد الإنسان ذاته الحقيقية وهو يظن أنَّه يعيش أجمل حياة.

الدرس الأول: الثقافة الإسلامية والثقافة الاستهلاكية في عصر المعلوماتية ٩

وقد روى عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يا شيعة آل محمد، إنه ليس منّا من لم يملك نفسه»^(١).

وأخطر ما تسلبه الثقافة الاستهلاكية من الإنسان هو ملكيته لنفسه. فهي تجعله أسير رغباته، تابعاً لغرائزه، تائهاً في عالم لا يتوقّف عن الجذب والإغراء، بعيداً عن وعيه وهداه، غارقاً في بحرٍ من الإعلانات والمحتويات التي لا نهاية لها.

إنّ عصر المعلوماتية ليس خيراً مطلقاً، ولا شراً محضاً، بل هو امتحان صعب لنفوسنا وقلوبنا وعقولنا ووعينا.

إنّهُ اختبار يميّز بين من يعيش لله، يسعى للحق والخير، ويزرع في نفسه نور الوعي، وبين من يعيش للشاشات، يركض وراء الأوهام الرقمية، ويجعل حياته أسيرةً للمحتوى المتدفّق بلا توقّف، بلا وعي، بلا هدف.

وفي هذا العصر، لم يعد السؤال عن استخدام التكنولوجيا فحسب، بل أصبح السؤال الأكبر: هل بقي فينا شيء لم تُسخّرْه هذه الوسائل؟ ولكي نحتمي أنفسنا من هذا الطوفان الرقمي، نحتاج إلى خطوات أخلاقية وسلوكية واضحة تعيد ترتيب حياتنا وتعيد للوعي مكانته:

أولاً: تهذيب العلاقة مع الأجهزة:

لا تجعل الهاتف رفيقاً ملازماً لا يفارق يدك، بل حدّد أوقاتاً صارمة لا يُفتح فيها الجهاز إطلاقاً:

ساعة عند الفجر، ساعة عند الظهر، وساعة قبل النوم.

(١) الإمام الصادق عليه السلام علم وعقيدة - رمضان لاوند: ص ١٣٧.

١٠ دروس في الأخلاق

فالوقت الذي يقضيه الإنسان مع نفسه بلا شاشات... هو الوقت الذي يولد فيه الوعي، ويصقل الفكر، وينمو التأمل.

وقد بيّن رسول الله ﷺ هذا التوازن في الحياة، فقد رُوي عنه قوله: «إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ»^(١).

فالرسول ﷺ يوجّهنا إلى إدراك حقوق الله، وحقوق النفس، وحقوق الآخرين، وتحقيق التوازن بينها، فلا يُهمَل حق النفس بالانغماس في الشاشات والمحتوى الرقمي، ولا يُنسى حق الله وواجباته تجاه الآخرين.

فأين حق النفس إذا استُهلِك كل وقتها أمام الشاشات؟ وأين وعي الإنسان إذا غرق في محتوى لا ينهض بروحه؟

ثانيًا: ملء الفراغ قبل الانشغال بالكلام:

لا يكفي أن نغلق الهاتف، بل يجب أن نملأ القلب بمعنى حقيقي، يهدئ النفس، ويرسخ الوعي، ويبعدها عن ضوضاء الدنيا الافتراضية.

وأقلّ القليل: صفحة من القرآن يوميًا، صفحة واحدة تكفي لتخفيف صخب الحياة، ولزراعة السلام في القلب المتعب.

فالقرآن يذكرنا بقوة الاتصال بالله، فيقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

(١) موسوعة معارف الكتاب والسنة - محمد الريشهري: ج ٢، ص ٤٢٢.

الدرس الأول: الثقافة الإسلامية والثقافة الاستهلاكية في عصر المعلوماتية ١١

والقلب المتّصل بالله، المتذكّر لربه، لا تقدر عليه الثقافة الاستهلاكية بسهولة، ولا يمكن لأيّ محتوى رقمي أن يملأ فراغه أو يغويه، فالمعنى هو الحصن الأول ضد التشوّط والغرق في ضجيج العصر.

ثالثاً: التحرّر من وهم:

كل إعلان يهمس في أذنك: اشترى أكثر، امتلك أكثر، انشر أكثر...
لكن القرآن الكريم يوجّه الإنسان إلى التوازن والاعتدال في قوله تعالى:
﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٣).

فالتوازن هو خير ما يهتدى إليه، لا الإفراط... الكفاية خير من الترف...
والحكمة خير من الاستهلاك.

ولكي نحتمي أنفسنا من الوقوع في فخّ الثقافة الاستهلاكية، اسأل نفسك
قبل كلّ شراء أو تصرّف:

- هل هذا فعلاً احتياج، أم مجرد استجابة لضغط الإعلانات؟
- هل هذا يعزّز حياتي، أم يضيف عبئاً نفسياً وروحياً لا حاجة له؟

رابعاً: تأسيس البديل الأخلاقي:

لا نسعى لمجرّد محاربة التكنولوجيا أو رفضها، بل نسعى لأن نقودها بوعي
وحكمة.

لنصنع محتوى يثري الروح والعقل، صفحات هادفة، مبادرات تربوية،
مجموعات قراءة، وأنشطة أخلاقية تُقوّي الإنسان وتعيد له وعيه.

١٢ دروس في الأخلاق

فبناء هذا البديل الأخلاقي هو السبيل الوحيد لردع الفساد الرقمي، وحماية نفوسنا من الانجراف وراء الأوهام والمغريات الزائفة.

إننا بذلك لا نوقف عصر المعلوماتية، بل نستخدمه ليكون أداة لصقل الوعي، وتنمية القيم، ونشر الخير.

خامساً: إعادة قدسية الوقت:

إنَّ أعظم خسارة تسببها الثقافة الاستهلاكية ليست المال، بل الوقت نفسه. الوقت الذي لو استثمر بوعي وتصميم لغير حياة صاحبه، ولو ضاع ضاع معه كنز الفرص الثمين وأيام العمر الغالية. فالوقت هو رأس مال المؤمن الحقيقي، وأوّل ما يُحاسب عليه يوم القيامة، كما يبيّن أهل البيت عليهم السلام.

فلا تجعله سلعة رخيصة تُستهلك بين التطبيقات والمحتويات الرقمية، ولا تمرّ لحظة منك بلا وعي أو فائدة، فكلّ دقيقة مضت لا تعود، وكلّ ثانية استُهلكت بلا معنى هي خسارة حقيقية للروح والعقل، وفرصة ضائعة لن تتكرّر.

إنَّ الثقافة الإسلامية هي سفينة النجاة وسط بحر هائج من الأمواج المتلاطمة، لأنّها تعيد الإنسان إلى أصله: مخلوق مكرّم، له رسالة، له هدف، وله نور يهديه ويهدي به الآخرين.

أمّا الثقافة الاستهلاكية، فهي تهدم هذا المعنى، وتجعل الإنسان مستهلكاً لمشاعره، ووقته، وقيمه، ومبادئه، تُغريه بأن يكون نسخة من غيره، بينما القرآن الكريم يريد له أن يكون ذاته في أبهى صورة ممكنة.

الدرس الأول: الثقافة الإسلامية والثقافة الاستهلاكية في عصر المعلوماتية ١٣

لقد أراد الله تعالى للإنسان أن يكون سيِّداً لا تابعاً، قوياً لا هشاً، ثابتاً لا متذبذباً، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء: ٧٠).

فكيف يليق بالمكرم أن يعيش عبداً للشاشات؟

فلنخرج من هذا الدرس ونحن نحمل في قلوبنا عزمًا صادقاً على:

أ - إعادة ترتيب علاقتنا بالأجهزة، وفرض حدود واعية لا تخضع للهوى.

ب - جعل القرآن الكريم ميزاننا ومرشدنا، لا الإعلانات والمحتويات

الزائفة.

ج - تقديم العقل على العاطفة، والواقع على الصورة، والنية على المظهر.

د - أن نكون أحراراً في عالم يسعى لتحويلنا إلى أسرى.

هـ - حماية قلوبنا من التشبُّث، وعقولنا من الضياع، وأوقاتنا من التبديد.

ولنتذكَّر دائماً: إذا فقد الإنسان بوصلته الأخلاقية، فلن ينفعه بحر من

المعلومات، وإذا امتلك قلباً سليماً، جعل الله له نوراً يمشي به في ظلمات الحياة.

اللَّهُمَّ نور قلوبنا بالقرآن، وزكِّ نفوسنا بالأخلاق، واهدنا إلى سواء السبيل،

وبارك لنا في أوقاتنا، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وصلَّى الله على محمدٍ وآله الطاهرين.

الدرس الثاني

القرآن مدرسة الحوار

كيف يؤتي الحوار ثماره اليانة؟

في هذا العصر الذي تزدحم فيه الكلمات وتتصاعد فيه الآراء، وتكثر المنابر وتندر فيه القلوب الحاضرة للاستماع، أصبح الحوار من أعظم القيم المفقودة في حياة الإنسان اليومية.

فالناس اليوم يتكلمون أكثر مما يسمعون، ويجادلون أكثر مما يفهمون، ويسعون للانتصار لأنفسهم على طلب الحق، فتصير الكلمات سيوفاً تصيب لا هداية تُنير.

وسط هذا الضجيج، يقدم لنا القرآن الكريم مدرسة للحوار الهادف، لا بوصفه مهارة لغوية فحسب، ولا أداة جدل لصراع الأقوياء، بل منهجاً أخلاقياً وتربوياً وسلوكياً، يوجّه القلوب قبل العقول، ويعلم الإنسان كيف يختلف بلا خصومة، وكيف يناقش بلا قطيعة، ليكون الحوار وسيلة للإصلاح، لا للخصومة.

فالقرآن ليس مجرد أوامر ونواهٍ، بل هو حوار دائم:

• حوار بين الله وملائكته.

• حوار بين الأنبياء وأقوامه.

• حوار بين الحق والباطل.

• وحوار مع النفس في لحظات التردد والضعف.

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

فالآية الكريمة لا توجِّهنا إلى (ماذا) نقول فحسب، بل تُرشدنا إلى (كيف) نقول، وبأي روح وأخلاق، لتكون الكلمة نافذة للحق، لا جداراً من التعقيد والصراع.

سوف نذكر أربع نقاط أساسية للحوار المثمر وفق منهج القرآن وأهل البيت عليه السلام:

النقطة الأولى: تصحيح النية قبل الشروع في الحوار:

في مدرسة أهل البيت عليه السلام يُعلَّم المتعلِّم أنَّ الحوار يبدأ من الداخل قبل أن يظهر على اللسان، فالقلب إن لم يُطهَّر من الشوائب، وإن لم يُخضع للنصيحة الإلهية، فإنَّ الكلام مهما علا شأنه، لا يثمر إلَّا الخصومة والانحراف عن الحق، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨).

ورُوي عن زيد الشحام، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنِّي سمعتك تقول: «نية المؤمن خير من عمله»، فكيف تكون النية خيراً من العمل؟ قال: «لأنَّ العمل ربِّما كان رياءً للمخلوقين، والنية خالصة لربِّ العالمين، فيعطي الله على النية ما لا يعطي على العمل»^(١).

(١) وسائل الشيعة (الإسلامية) - الحر العاملي: ج ١، ص ٦٤.

توجيهات عملية وفق منهج أهل البيت عليه السلام للحوار اليومي:

١ - ابدأ الحوار بنية الحق لا الانتصار للرأي:

قبل أن تتكلم، اسأل نفسك هل هدفك هداية نفسك أو الآخرين، أم إثبات نفسك؟ فالهداية أولى من الانتصار.

٢ - استقبل الحق مهما جاء من غيرك:

لا تغلق قلبك أمام فكرة صحيحة لم تأت منك، فالقصد إصلاح النفس والآخرين، وليس فرض الذات أو التفاخر بالكلمة.

٣ - راقب قلبك قبل لسانك:

إذا شعرت أن الحديث خرج من منطلق أناني أو غضب، توقف، فالصمت أحياناً خير من الكلام، وهو حماية للحق وللقلوب.

٤ - اجعل كل كلمة صادقة وخالصة لله تعالى:

اجعل حديثك جسراً للهداية، لا أداة للجدل العقيم، وذكّر نفسك أن كل حرف سئال عنه أمام الله.

فبتطبيق هذه التوجيهات، يصبح الحوار أداة للنمو الروحي والتربوي، لا ساحة للتباغض والتنازع.

فالمحدث المخلص في نيته، المراقب لقلبه قبل لسانه، قادر على أن يفتح للآخرين أبواب الفهم، وأن يحفظ نفسه من الانحراف، وأن يجعل كل كلمة تنبثق من قلبه جسراً للحق والهداية، لا حجراً يسقط القلوب.

وهكذا، يكون تصحيح النية هو الأساس الذي يُبنى عليه كل حوار ناجح، كما يربّي الإنسان على ضبط ذاته، ويُرسّخ في قلبه قيمة الصدق والإخلاص قبل

١٨ دروس في الأخلاق

قوة الكلام، مستشعراً أنَّ كلَّ كلمة سيُسأل عنها يوم القيامة، كما حذرتنا النصوص القرآنية والروايات الشريفة.

النقطة الثانية: الإصغاء الواعي أساس الحوار المثمر:

الاستماع ليس مجرد سماع الأصوات، بل هو فعلٌ واعٍ يطهّر القلب وينير العقل، فالمنصت الحقّ يسعى إلى إدراك قصد المتحدث وفهم جوهر كلامه، لا انتظار لحظة الردّ أو استعراض الذات في النقاش، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر: ١٨).

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «وتعلّم حسن الاستماع كما تتعلّم حسن القول، ولا تقطع على أحد حديثه»^(١).

ولتجعل الاستماع أداة فعّالة في الحوار، يمكن اعتماد ما يلي:

١ - أمعن النظر في كلّ كلمة تُقال، واحرص على عدم مقاطعة المتحدث قبل أن يُكمل فكرته.

٢ - ركّز على فهم قصد الآخر ومضمونه قبل أن تُعطي جوابك، فالفهم العميق يسبق الردّ الرشيد.

٣ - امنح الطرف الآخر حقّه الكامل في التعبير، فهذا يُظهر الاحترام ويهيئ العقل لتلقي الفكرة بموضوعية.

٤ - تحلّ بالهدوء، فالصمت في لحظات مدروسة أحياناً أنفع من الكلام، ويتيح لك فرصة تقييم الحديث بوعي.

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ١، ص ٢٢٤.

الدرس الثاني: القرآن مدرسة الحوار..... ١٩

٥ - اجعل الاستماع عبادة روحية، لا مجرد مهارة اجتماعية، فالقلب المتفاعل مع الكلام يحوّل الحوار من تبادل كلمات إلى جسرٍ للحق والهداية.

النقطة الثالثة: تهذيب الأسلوب قبل عرض الفكرة:

الكلمة الصحيحة قد تفقد أثرها إذا أساء المتحدث أسلوب إيصالها، فاللّين وحسن العرض هما مفتاح القلوب قبل العقول.

فالأسلوب الراقى لا يقل أهمية عن صحة المضمون، إذ قد تغلق القلوب أمام الحقّ إذا جاء في شكلٍ حادٍّ أو بأسلوب الاستعلاء، الحوار الفعّال يبدأ من ضبط النفس، وضبط لسانك قبل طرح الفكرة، فلا يكتفي المرء بما يريد قوله، بل يحرص على أن يصل المعنى بأجمل صورة، ويُحدث أثراً إيجابياً في من يسمعه، قال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣).

ورُوي عن رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر: «يا أبا ذر، الكلمة الطيبة صدقة»^(١).

وهكذا يُعلّمنا القرآن الكريم والسنة الشريفة أن جمال الأسلوب وصدق الكلام هما جسر للوصول إلى القلوب، وأنّ القوة في الحوار ليست في رفع الصوت أو فرض الرأي، بل في حسن العرض والنية الصادقة للهداية. ولتطبيق هذا المبدأ عملياً:

- ١ - اجعل صوتك معتدلاً، وابتعد عن أيّ نبرة تعالٍ أو تهديد.
- ٢ - اختر كلماتك بعناية، وركّز على الهدف من الحوار، لا على الانفعال اللحظي أو إثبات الذات.

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي: ج ٥، ص ٢٣٣.

٢٠ دروس في الأخلاق

٣ - قدّم فكرتك برفق وهدوء، مع التمسك بالحقّ، فالكلمة المهذبة تُثير القلوب قبل العقول.

٤ - استخدم الأمثلة، وبيّن المعاني بطريقة سلسلة، فالحوار الراشد يقوم على الفهم المتبادل وليس على قوة الصوت أو صخب الجدل.

٥ - احرص على مراعاة مشاعر الآخرين، فالتقدير والاحترام يسهلان وصول المعلومة ويزيدان من تأثيرها.

بهذه الطريقة، تتحوّل كلّ كلمة إلى جسر يصل بين الفهم والقلب، ويصبح الحوار وسيلة للهداية والإصلاح، وليس مجرد تبادل للأقوال أو إثبات الذات، فتثمر الكلمات بأثرها الجميل في النفوس، وتغرس قيمة الصدق واللين قبل قوة الحجة.

النقطة الرابعة: الكرامة الإنسانية ميزان الحوار:

الحوار الناجح يقوم على التمييز بين الفكرة وصاحبها، فالحق لا يبيح إهانة الآخرين أو انتهاك كرامتهم، وأنّ احترام الإنسان، مهما خالفك، من أسس التربية القرآنية، ويعكس سمو النفس وصدق السعي للهداية، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١).

توجيهات عملية:

١ - ركّز على مناقشة الفكرة لا الشخص.

٢ - تجنّب السخرية والاستهزاء بأيّ شكل كان.

٣ - احرص على حفظ كرامة الطرف الآخر حتّى لو اختلف معك، فالاحترام يعزّز فرصة التفاهم ويجعل الحوار وسيلة للهداية بدل الجدال العقيم. فالانتصار في الحوار لا يقاس بإسقاط الخصم، بل بترك أثر من الاحترام والوعي يثمر الفهم والتقارب بين القلوب.

النقطة الخامسة: الحكمة في معرفة متى نكمل الحوار ومتى ننسحب:

ليس كلّ نقاش يستحق الاستمرار، وأحياناً يكون الانسحاب هو الحكمة والنجاة، فاستمرار الجدال مع من لا يقبل الحقّ قد يضرّ بالقلب ويبعثر الجهود بدل أن يثمر هداية، الحكمة تكمن في تقدير اللحظة ومعرفة متى يكون الصمت أو الابتعاد، أبلغ من الكلام.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

ورُوي عن الرسول الأكرم ﷺ: «من ترك المراء وهو محقّ بنى له بيت في أعلى الجنة، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة»^(١). وبناءً عليه:

١ - إذا تحوّل الحوار إلى صراع أو خصومة، انسحب بهدوء وبلا انفعال.

٢ - لا تجبر أحداً على الاستماع إذا لم يقبل، فالفرضية الأساسية هي قبول الطرف الآخر.

(١) مستدرك الوسائل - ميرزا حسين النوري الطبرسي: ج ٩، ص ٧٦.

٢٢ دروس في الأخلاق

٣ - اجعل حفظ سلامة قلبك وهدوءك أولوية على كسب النقاش، فالنفس السليمة تثمر حكمة وفهماً، أمّا الانفعال فيهدر الحوار ويبعد عن الحق. فالانسحاب الحكيم ليس هزيمة، بل هو احترام للحق والذات، ويتيح الفرصة لزمّن أفضل لطرح الكلمة الطيبة حين تكون النفوس أكثر استعداداً للاستماع.

الخلاصة:

لقد بيّن لنا القرآن الكريم أنّ الحوار ليس مجرد تبادل كلمات، بل هو منهج حياة يزكّي النفوس، ويرسّخ الفضائل، ويحفظ العلاقات، فمن اتّبع قواعده، بدءاً من تصحيح النية، والإصغاء الواعي، وتهذيب الأسلوب، وحفظ كرامة الآخر، وصولاً إلى الحكمة في الانسحاب عند اللزوم، صار كلامه أداة هداية، وصمته وقاراً ورشداً، وحواره سبباً لفتح القلوب لا لإغلاقها. إنّ الالتزام بأخلاق الحوار القرآني يجعل الإنسان داعية بسلوكه قبل كلامه، ومصلحاً بكلمته قبل حجّته، وفاعل خير في كلّ لقاء يتصرّف فيه بالحق والعدل. نسأل الله ﷻ أن يجعل ألسنتنا ناطقة بالحق، وقلوبنا متفتحة للفهم، وأخلاقنا شاهدة على هدي القرآن، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الدرس الثالث كيف تكون صناعة المثقف

والوعي بمسؤوليته الثقافية الرسالية؟

إنَّ الحديث عن المثقف في الرؤية الإسلامية ليس حديثاً عن فئة نخبويّة منعزلة عن واقعها، بل عن عنصرٍ فاعلٍ في تشكيل الوعي العام، وصناعة الاتجاهات، وحراسة القيم من التميع والانحراف.

فالكلمة في الإسلام ليست محايدة، والمعرفة ليست عبثاً، بل كلاهما أمانةٌ ثقيلةٌ تُحمّل للإنسان، ويُسأل عنها يوم القيامة أثراً ومآلاً ومسؤولية، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ (الصفافات: ٢٤).

ومن هنا، تبرز ضرورة البحث في كيفية صناعة المثقف الرسالي، وتشخيص ملامح مسؤوليته الثقافية والأخلاقية، ولا سيّما في زمنٍ تكاثرت فيه الفتن، واشتدّ فيه اختلاط الحقّ بالباطل، وتعدّدت فيه المنابر والأصوات، حتّى غدا الوعي الصادق أمانةً لا ينهض بها إلّا من جمع بين البصيرة، والالتزام، وحسن الأداء.

ومحاور الدرس أربعة:

- ١ - ماهيّة المثقف وحدود وظيفته في الأمّة.
- ٢ - المرتكزات الأساس في صناعة المثقف وبناء وعيه.

٣ - المسؤولية الشرعية والأخلاقية للمثقف.

٤ - أخلاق المثقف في زمن الفتن والتحديات المعاصرة.

المحور الأول: ماهية المثقف وحدود وظيفته في الأمة:

المثقف في الرؤية الإسلامية ليس ناقلاً مجرداً للمعرفة، ولا فئة منبوذة في أعلى سلم المجتمع، بل هو روح فاعلة في بناء الوعي العام، وراصد يقظ لمسارات الفكر، وحارس أمين على القيم.

فالعالم إذا انفصل عن البصيرة والهداية، صار ثقلاً على صاحبه وعبئاً على الأمة، يُحرّف الطريق بدل أن ينيره، قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد: ١٩).

وتدل الآية على أن المعرفة الحقيقية ليست في تراكم المعلومات، بل في أن تُحوّل الإدراك إلى نور يهدي النفس والآخرين.

فالمثقف الحقيقي هو الإنسان الواعي، الذي امتلك علماً رشيداً، وبصيرة نافذة، وحسّاً بالمسؤولية، فجعل من علمه أداة للهداية، ومن فكره وسيلة للإصلاح، لا للتزيين أو التبرير.

فالثقافة في هذا المعنى ليست قياساً لمدى الاطلاع أو ثراء الحصيلة المعرفية، بل بمدى قدرة الإنسان على تحويل المعرفة إلى موقف، والوعي إلى سلوك، والكلمة إلى أثر صالح في الواقع، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»^(١).

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١٨.

الدرس الثالث: كيف تكون صناعة المثقّف والوعي بمسؤوليته الثقافية الرسالية؟ ٢٥

وهذه الرواية تؤكّد أنّ القيمة الحقيقية للثقافة تكمن في الفاعلية والأثر، لا في الكمّ المعلوماتي أو زخرفة القول، فالإنسان المثقّف هو من يجعل علمه وسلوكه شاهداً على هدي الحقّ، ووسيلةً لهداية الآخرين، لا مجرد عنوانٍ شكلي أو صيتٍ فارغ.

وعليه، تتجلّى وظيفة المثقّف الرسالي في:

- ١ - بيان الحقّ بوضوح، لا تمويه أو الالتواء حوله.
 - ٢ - توجيه وعي الأُمّة نحو الصواب، لا تضليله أو خداعه.
 - ٣ - صيانة القيم والثوابت من الانحراف أو المساومة.
- فالمثقّف شاهدٌ على عصره، وأمينٌ على كلمته، ومسؤولٌ أمام الله عن أثر علمه وفكره في العقول والقلوب، فكلّ كلمة يقولها، وكلّ موقف يتّخذه، أمانة ثقيلة تُسأل عنها النفس يوم القيامة، ويصبح بذلك المثقّف عامل بناءٍ في الأُمّة، وعماداً لحفظ الحقّ وتهذيب العقول.

المحور الثاني: المرتكزات الأساس في صناعة المثقّف وبناء وعيه:

لا يُصنع المثقّف صدفةً، ولا يُولد الوعي بالمعرفة من تلقاء نفسه، بل يتطلّب مساراً تربوياً متكاملًا، يرسّخ في النفس أُسس الفكر الصحيح، ويصقل العقل، وينمّي الروح، ويوجّه المعرفة نحو الصلاح والخير، لا نحو الهيمنة أو الرياء.

أولاً: الإيمان أساس الثقافة:

فالعلوم والمعارف، إن لم تُؤسّس على الإيمان، فقد تتحوّل إلى أدوات استكبار وسيطرة، أمّا إذا اجتمع العلم مع الإيمان، فإنّه يصبح وسيلة إصلاح

٢٦ دروس في الأخلاق

وهداية، قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المجادلة: ١١).

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أخذ الله على الجُّهال أن يتعلَّموا، حتَّى أخذ على العلماء أن يعلموا»^(١).

ثانياً: البصيرة والحكمة قبل التصرف:

البصيرة شرطٌ أساسي للعلم النافع، فليس كل من امتلك معلومةً يمتلك حق التصدي أو المبادرة، بل الواجب التأني في النظر والتفكير العميق قبل أي قول أو فعل، فالمثقف الرسالي يزن الأمور بعقل ناضج وبصيرة نافذة، ويحوّل العلم إلى نور يهدي، لا إلى أداة للتهوّر أو الاستعراض، مجسداً قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

ثالثاً: التواضع العلمي وضبط النفس:

المثقف الحقّ هو من يزن كلامه ويحدّد مقامه، فلا يندفع وراء التهوّر، ولا يتباهى بمعرفته، فهو يوازن بين الجرأة في قول الحقّ والمسؤولية الملقاة على عاتقه، مدركاً أنّ لكلّ كلمة أثراً في النفوس.

فقد روي عن كميل بن زياد عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من وضع نفسه موضع التهمة فلا يلومنّ من أساء به الظن»^(٢).

(١) عوالي اللئالي - ابن أبي جمهور الأحسائي: ج ٤، ص ٧١.

(٢) خصائص الأئمة عليهم السلام - الشريف الرضي: ص ١٠٨.

الدرس الثالث: كيف تكون صناعة المثقف والوعي بمسؤوليته الثقافية الرسالية؟ ٢٧

فالوعي بالمعلومة وحده لا يكفي لصناعة المثقف الرسالي؛ بل لابد من تواضع علمي وصبر وضبط للنفس، فالمثقف يُبنى بالصمت الواعي كما يُبنى بالكلمة المسؤولة، ويحوّل كل خطاب إلى جسر للهداية، لا إلى أداة للغطسة أو الهيمنة، مستشعراً أنّ الكلمة مسؤولة، وأنّ العقل المتأمل هو مرشد الأثر الصالح.

المحور الثالث: المسؤولية الشرعية والأخلاقية للمثقف:

المثقف في الرؤية الإسلامية ليس حرّاً فيما يقول أو يفعل بمعزل عن ضوابط الشريعة والضمير الأخلاقي، فكل كلمة تُنطق، وكل معلومة تُروّج، وكل صمت يُعتمد، لها وزنها أمام الله، وسيُسأل عنها الإنسان يوم الحساب، إنّه أمانة عظيمة ومسؤولية جسيمة، لا يليق بالمثقف أن يفرّ منها أو يستسهلها، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨).

وروي عن سليمان بن مهران، قال: دخلت على الصادق جعفر بن محمد عليه السلام وعنده نفر من الشيعة، فسمعتة وهو يقول: «معاشر الشيعة، كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسناً، واحفظوا ألسنتكم وكفّوها عن الفضول وقبيح القول»^(١).

فالمثقف المتكبر بعلمه، أو المتساهل في مسؤوليته، يتحوّل من مرشد وهادي إلى شريك في الإفساد، بعيداً عن رسالته الرسالية وأمانته الثقافية.

ومن أبرز أبعاد المسؤولية الشرعية والأخلاقية للمثقف:

١ - تصحيح الانحراف لا تبريره:

أن يكون دافعه هداية النفوس وبيان الحق، لا تغطية الباطل أو تحريفه.

(١) الأُمالي - الشيخ الصدوق: ص ٤٨٤.

٢ - حفظ وعي الناس لا استغلاله:

فالمعرفة أمانة، والثقافة وسيلة للتهذيب والإصلاح، لا أداة للتفاخر أو الهيمنة على العقول.

٣ - أن يكون قدوةً بسلوكه قبل خطابه:

فالفعل أصدق من القول، والسلوك الملتزم بالحقّ أبلغ من أيّ خطاب يُلقى، ويثبت أثر المعرفة في القلوب قبل الألسنة.

وهكذا، يصبح المثقف الحقّ من يزن كلماته بموازين الشرع، ويوازن بين الحقّ والواجب، ويجعل من وعيه ومعرفته جسراً للهداية، محافظاً على نفسه والآخرين من الانحراف، ومُرسّخاً القيم في القلوب قبل أن تُرسّخ في الألسنة.

المحور الرابع: أخلاق المثقف في زمن الفتن والتحديات المعاصرة:

إنّ زمن الفتن هو اختبار حقيقي للمثقف، يُقاس فيه ثباته على الحق، وصدق نيّته، وحكمته في إدارة المواقف، فليس كلّ صراعٍ يستحقّ الدخول، ولا كلّ قضية تُعالج بالصدّام، بل المطلوب التمييز بين ما يُعين على الإصلاح وما يُسهم في الفوضى والانحراف، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال: ٢٥).

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كن في الفتنة كابن اللبون، لا ظهر فيركب، ولا ضرع فيحلب»^(١).

فالمثقف الحقّ يدرك أنّ التهور في زمن الفتن قد يحوّل العلم والهداية إلى أداة ضرر، وأنّ التأنّي والتروي فضيلة قبل كلّ قول وفعل.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٣.

الدرس الثالث: كيف تكون صناعة المثقف والوعي بمسؤوليته الثقافية الرسالية؟ ٢٩

ومن أبرز أخلاق المثقف الرسالي في مواجهة التحديات المعاصرة:

١ - الحكمة في الطرح:

تقديم الحق بأسلوب مدروس، بعيداً عن الانفعال أو التسرع، بحيث يكون الهدف الإصلاح لا الانتصار الشخصي.

٢ - حفظ وحدة المجتمع:

صيانة الروابط الاجتماعية والأخلاقية، وعدم السماح للخلافات الفكرية أن تُفرّق الصفوف.

٣ - اجتناب الإثارة والتشهير:

تجنب استخدام المعرفة أو المنصب الثقافي لتشويه الآخرين أو لإثارة الفتن.

٤ - تقديم الإصلاح على الانتصار الشخصي:

جعل الحق والهداية دائماً أولوية، لا الكبرياء أو المجد الشخصي.
إن لكل قول وفعل وقتاً ومكاناً، ولكل موقف أسلوباً وأثراً ينبغي مراعاته، فالعقلاء يزنون الأمور قبل النطق، ويضبطون سلوكهم قبل خروج الكلام، فلا يُسهمون بالتهوُّر أو الاندفاع في نشر الفتن أو الانحراف عن الصواب.
إنّها دعوة للتأني والتفكير العميق في نتائج الأفعال والكلمات، بحيث تتحقّق الأهداف الإصلاحية دون إضرار بالنفس أو بالآخرين، ويصبح كلّ تصرّف جسراً للهداية لا سبباً للانقسام، فروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العاقل مَنْ وَضَعَ الأشياءَ مواضعها، والجاهلُ ضِدُّ ذلك»^(١).

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٧، ص ٥٢٤.

٣٠ دروس في الأخلاق

وهذه قاعدة ذهبية للمثقف الرسالي، تُبيّن أنّ كلّ كلمة وفعل يجب أن يُوضع في محله المناسب، وكلّ موقف يُدار بحكمة وبصيرة، بحيث تُحفظ النفس والقيم، ويُهدى المجتمع إلى برّ الأمان، بعيداً عن التنافس الفارغ والفتن العابرة، مجسّداً رسالته الثقافية والأخلاقية في كلّ قول وفعل، ليكون كلامه وعمله جسراً للهداية والإصلاح لا أداة للانقسام أو الضياع.

الخاتمة:

أيّها الأحبّة، إنّ المثقف في ميزان القرآن الكريم ونهج أهل البيت عليه السلام ليس مجرد ناقل للمعرفة، ولا صاحب موقف عابر، بل هو ضمير حيّ، ووعي نافذ، ومسؤولية دائمة، فالعلم بلا عمل كالنور بلا شعاع، والكلمة بلا أثر كالسهم الضائع في الهواء، لا يثمر صلاحاً ولا يهدي طريقاً، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم مقرون بالعمل فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه»^(١).

فالمثقف الحقّ هو الذي:

- ١ - يبدأ بتزكية نفسه، فيطهر قلبه من الهوى ويهدّب فكره من الانحراف.
- ٢ - يزن كلماته قبل أن تُنطق، فلا يكون كلامه سبباً للفرقة أو للإفساد.
- ٣ - يتحمّل تبعات علمه، مدركاً أنّ كلّ معرفة أمانة، وكلّ قول مراقب.
- ٤ - يجعل ثقافته وسلوكه جسراً للهداية، لا أداة للتسلّط أو الرياء، ويقدم الإصلاح على الانتصار الشخصي، والحقّ على المجد الفردي.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٨٥.

الدرس الثالث: كيف تكون صناعة المثقف والوعي بمسؤوليته الثقافية الرسالية؟ ٣١

فيجب أن نعلم أن لكل قولٍ وفعلٍ وقتاً ومكاناً، ولكل موقف أسلوباً وأثراً ينبغي مراعاته، فالعقلاء يزنون الأمور قبل النطق، ويضبطون سلوكهم قبل خروج الكلام، فلا يسهمون بالتهور أو الاندفاع في نشر الفتن، ولا يبررون الانحراف عن الصواب.

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل البصيرة، وحملة الوعي، والأمناء على الكلمة، العاملين بعلمنا، الثابتين على الحق في زمن الفتن، صوناً للقيم، وراسخين على هدي القرآن ونهج أهل البيت عليهم السلام، ليكون كل قولٍ وفعلٍ لنا جسراً للإصلاح، وسبيلاً لهداية الآخرين، بعيداً عن الانقسام والضياع، مجسدين رسالتنا الثقافية والأخلاقية في كل موقف وفعل، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

* * *

الدرس الرابع

مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل

الحياة بطبيعتها ليست خالية من التحديات والمصاعب؛ فالإنسان في مسيرة وجوده يواجه ابتلاءات متنوّعة، قد تكون فقدان شخص عزيز، أو ألماً نفسياً وجسدياً، أو خيبات أمل، أو محن حياتية مختلفة.

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الابتلاءات جزءاً من مسار التربية الروحية والأخلاقية، وأن تتحوّل الشدائد من عوامل للانكسار والضعف إلى فرص للنمو، وتقوية الإيمان، ورفع درجات التقوى.

فالآهات التي تصدر عن النفس ليست مجرد صرخات ضعف، بل يمكن أن تتحوّل إلى منطلق للتأمل، والفهم، واتخاذ الموقف الصحيح أمام الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

إنّ معالجة المصاعب ليست مجرد تفسير فلسفي أو نظرية معرفية، بل هي مسار عملي وأخلاقي يبدأ من الذات، وينتقل إلى سلوكياتنا اليومية، ويؤثر في علاقتنا بالآخرين.

في هذا الدرس، سنسلط الضوء على كيفية قراءة الألم، وفهمه، ومعالجته عملياً، وتحويله إلى أمل ينبثق من قلب المحنة.

المنهجية العملية لمعالجة مصاعب الحياة في عدّة محاور:

- ١ - تحديد طبيعة المشكلة أو الألم.
- ٢ - تفكيك أثر الانكسار والآهات.
- ٣ - تقديم المعالجات العملية.
- ٤ - تحويل الألم إلى طاقة تغيير.
- ٥ - صناعة الأمل من داخل المحنة.

المحور الأول: تحديد طبيعة المشكلة أو الألم:

الألم جزء أصيل من التجربة الإنسانية، وليس مجرد قدر عابر أو عقوبة محضة، فالابتلاءات التي يخلقها الله تعالى للإنسان ليست عقاباً عشوائياً، بل هي وسيلة تربوية رفيعة لتهديب النفس، وصقل الروح، واختبار الثبات على القيم والأخلاق، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢).

فالفهم العميق لطبيعة الألم يساعد الإنسان على مواجهة المصاعب بصبر وعقلانية، بعيداً عن الجزع واليأس، ويحوّل التجربة الصعبة إلى طريق للنمو الروحي والاجتماعي.

إنّ الفهم العميق لطبيعة الألم يُمكن الإنسان من مواجهة المصاعب بروح واعية وصبرٍ عقلائي، بعيداً عن الجزع واليأس، ويحوّل التجربة الصعبة من حالة استنزاف نفسي إلى مسار للنمو الروحي والاجتماعي.

فالألم حين يُفهم في سياقه الصحيح، لا يكون عائقاً في طريق الحياة، بل عاملاً مكوّناً للنضج والوعي.

الدرس الرابع: مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل ٣٥

وحين يعي الإنسان فلسفة الألم في التجربة الإنسانية، يدرك أن كل محنة تحمل رسالةً تربوية، تكشف مكامن القوة والضعف في النفس، وتدعوه إلى مراجعة ذاته وإعادة النظر في مساره، وبهذا الوعي يتحوّل الألم من حالةٍ منهكة إلى وسيلةٍ للتأمل والارتقاء الداخلي وبناء وعيٍ أعمق بالحياة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الجاثية: ٢١).

تُبَيِّن الآية أن لمسار الإيمان والعمل الصالح أثراً متميزاً في تشكيل تجربة الإنسان الحياتية، وأن ما يمرّ به من أحداث لا ينفصل عن وعيه القيمي ونظرته إلى الوجود، ومن ثم، فإنّ الألم لا يحمل نتيجةً واحدة، بل تتنوّع آثاره تبعاً لطريقة التعامل معه؛ فقد يكون عامل اضطرابٍ وانكسار، وقد يتحوّل إلى فرصةٍ للمراجعة والتقويم.

ومن المنظور التربوي العملي، فإنّ تشخيص طبيعة الألم يقتضي الوقوف على مصادره وأبعاده النفسية والاجتماعية، لأنّ حسن المعالجة فرعٌ عن حسن الفهم، وتقوم على الصبر الواعي، والبصيرة في قراءة الواقع، والاستناد إلى الدعم الإيماني والاجتماعي.

وعليه، ينبغي أن نفهم سبب المشكلة وطبيعة الألم، لنتمكّن من التعامل معه بحكمة وبصيرة:

١ - التأمل الواعي: مراجعة النفس وتحليل المشاعر لفهم جذور الألم وأبعاده الحقيقية.

٣٦ دروس في الأخلاق

٢ - التصدي بالوعي: مواجهة المصاعب بروح متوازنة، والابتعاد عن الجزع أو التهؤور.

٣ - الاستفادة من التجربة: تحويل الألم إلى درس عملي يفتح الطريق نحو النمو الشخصي والارتقاء الروحي.

٤ - تقييم الذات: استخدام الأزمة لتصحيح المسار، وتقوية نقاط الضعف، وتعزيز نقاط القوة.

٥ - الربط بالبعد الإيماني: إدراك أن الألم وسيلة للتقرب إلى الله، وأن الصبر والعمل الصالح معاً يرفعان الإنسان في مراتب الإيمان والتقوى.

بهذا المنهج، يتحوّل الألم من تجربة مُنهكة إلى تجربة قيّمة، تُثري العقل والروح، وتوجّه الإنسان نحو حياة متوازنة، تُزكّي النفس، وتعزّز قوة الصمود، وتؤسّس لمرحلة متجدّدة من الأمل والثقة بقدرة الله تعالى على تحويل الشدائد إلى مناراتٍ للنور والهداية.

المحور الثاني: الإنسان بين الانكسار الداخلي وقوّة الصمود:

الحياة الإنسانية مسيرة ابتلاء وامتحان، لا يخلو طريقها من الشدائد والمحن التي تهز القلوب وتثير مشاعر الانكسار النفسي والاضطراب الداخلي، إلّا أن الصمود الحقيقي لا يقتصر على صبر سلبي أو انتظار عابر، بل هو فعل واعٍ وقرار رشيد ينبع من وعي النفس، وثبات القلب، وضبط الإرادة، وانضباط الأخلاق.

فالإنسان الذي يفتقر إلى صلابة القلب يتأرجح بين الجزع واليأس، عاجزاً عن مواجهة تحدّيات الحياة بوعي ورشد، في حين أن إدراك طبيعة

الدرس الرابع: مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل ٣٧

ضعفه ومعالجتها بعقلانية وروح عملية يمكنه من تحويل المحنة إلى فرصة للنمو الروحي والنفسي، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (النحل: ١٢٧).

فهذه الآية تذكّر الإنسان بأنّ الصبر الحقيقي لا يكون إلا بالتمسك بالله، وأنّ قوة القلب وثبات النفس هما أساس القدرة على مواجهة الشدائد.

فالإنسان المؤمن الصابر يستطيع تحويل التجربة الصعبة إلى فرصة للنمو الداخلي، والارتقاء الروحي، وتقوية الإرادة، بدل أن يكون سبباً للانكسار واليأس.

فقد روي عن الإمام علي عليه السلام قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»^(١).

فهذه الرواية تبين أنّ الصبر قوة القلب، وركيزة الثبات أمام المحن، وأنّ العزيمة الداخلية أكثر أثراً من القوة الجسدية أو القدرة المادية.

ومن هنا ينبثق المنهج العملي لمواجهة الانكسار الداخلي:

١ - التعرف على نقطة الضعف: تحليل المشاعر السلبية وفهم مكان الانكسار النفسي لتحديد نقاط الضعف وإدراك أسبابها.

٢ - ضبط النفس وتحقيق التوازن: مواجهة المخاوف والضغط بروح واعية، والابتعاد عن الجزع أو الاندفاع غير المدروس.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٨٧.

٣٨ دروس في الأخلاق

٣ - تحويل الألم إلى دافع: استثمار التجارب الصعبة كمنطلق لتقوية الإرادة وتنمية القدرات الذاتية، وجعل المحنة نقطة انطلاق للنمو الشخصي.

٤ - الصبر النشط: ممارسة الصبر الواعي الذي يجمع بين التحمل والعمل على تجاوز الأزمة بروح منضبطة وهادفة.

٥ - الاستعانة بالدعم الروحي والاجتماعي: التمسك بالقيم الدينية والأخلاقية، واللجوء إلى الأسرة والمجتمع لتعزيز الصمود الداخلي وتقوية النفس.

بهذا المنهج، يتحوّل الانكسار النفسي من عائق يضعف الإنسان إلى مصدر قوة داخلية، تجعل القلب صلباً أمام محن الحياة، وتؤهّله لبناء وعي متين، وإيجاد بوارق الأمل وسط الشدائد، فكلّ شعور بالضعف هو فرصة لتقوية القلب، والقلب الصامد يزداد ثباتاً في الإيمان، ورصانة في السلوك، وقدرة على مواجهة تحديات الحياة بعزم ورشد.

المحور الثالث: المعالجة الأخلاقية للألم لا مجرد تفسيرها:

ليست الإشكالية في الألم بحدّ ذاته، فإنّ الألم سُنّة ماضية في الحياة الإنسانية، وإنّما تكمن الخطورة في كيفية التفاعل الأخلاقي معه، فكثيرٌ من الناس يُحسن توصيف معاناته، ويُتقن شرح أسبابها، غير أنّه يعجز عن ضبط سلوكه تحت ضغطها، فيتحوّل الألم من تجربة شخصية إلى أزمة أخلاقية، تتعدّى آثارها النفس لتطال العلاقات والمواقف والقرارات.

إنّ المنهج الإسلامي لا يكتفي بتفسير البلاء وتحليل أسبابه، بل يتجاوز ذلك إلى إدارة أثره السلوكي والأخلاقي؛ لأنّ القيم لا تُقاس في مواطن السعة

الدرس الرابع: مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل ٣٩

والرخاء، وإنَّما تُمَحَّصُ وتُخْتَبَرُ في ميادين الشدَّة والابتلاء، فالابتلاء - وإن اتَّحدت صورته - تختلف مآلاته باختلاف الموقف الأخلاقي منه؛ إذ قد يكون الألم عامل تهذيب وبناء، كما قد يتحوَّل عند سوء التعامل معه، إلى سببٍ للانفلات، والقسوة، والظلم، والإساءة، أو التخلِّي عن تحمُّل المسؤولية.

ومن هنا، يتَّضح أنَّ الخطاب الإلهي لا ينصرف إلى تبرير الأذى أو تسويق ردَّات الفعل الناتجة عنه، بل يوجِّه الإنسان إلى الارتقاء الأخلاقي في لحظة الاحتكاك والضغط، حيث تتجلَّى حقيقة السلوك، ويُمتَحَن صدق الالتزام بالقيم.

وفي هذا السياق، ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أَنَّهُ قال: «المؤمن صبور في الشدائد، وقور في الزلازل، قنوع بما أوتي، لا يعظم عليه المصائب»^(١).

وهي قاعدة أخلاقية دقيقة، تُبرز أنَّ حقيقة الإنسان لا تظهر في حال السعة، بل تتكشف عند ضيق الخيارات واشتداد الألم؛ فهناك، إمَّا أن يسمو المؤمن بأخلاقه، أو ينكسر سلوكه تحت وطأة المحنة.

بين التفسير والمعالجة:

يقتضي المنهج الأخلاقي التفريق الواضح بين مسارين متمايزين:

١ - تفسير الألم: وهو مسارٌ معرفيٌّ ذهنيٌّ، يبحث في سبب البلاء ولماذا وقع.

٢ - معالجته أخلاقياً: وهو مسارٌ سلوكيٌّ عمليٌّ، يُعنى بكيفية التصرُّف في حال المعاناة.

(١) مستدرک الوسائل - ميرزا حسين النوري الطبرسي: ج ٢، ص ٤٨٠.

٤٠ دروس في الأخلاق

فالعبرة ليست في تفسير الألم فحسب، بل في كيفية إدارته أخلاقياً، إذ بها يُصان السلوك وتُحفظ القيم.

معالم المعالجة الأخلاقية العملية:

أولاً: منع الألم من تبرير الخطأ، فلا يُتخذ الوجد ذريعةً للانفعال، أو الظلم، أو الإساءة، إذ لا يُبيح الألم تجاوز القيم.

ثانياً: ضبط اللسان في لحظة الانكسار، فكثير من الانحرافات الأخلاقية تبدأ بكلمة أُطلقت تحت ضغط الألم، ثم تحوّلت إلى سلوكٍ منحرف.

ثالثاً: الفصل بين المعاناة والعدالة، فالألم لا يُسقط المعايير، ولا يُغيّر ميزان الحقّ والباطل، ولا يُبرّر الخروج عن مقتضيات الإنصاف.

رابعاً: تحمّل المسؤولية السلوكية، إذ يُحاسب الإنسان على أفعاله واختياراته، لا على مجرد مشاعره وانفعالاته.

خامساً: إعادة توجيه الطاقة النفسية، من الشكوى والانفعال إلى الصبر العملي، والعمل الصالح، والخدمة الهادئة، بما يحفظ الاتزان الداخلي ويصون السلوك الخارجي.

وقد لخص الإمام الصادق عليه السلام هذا المنهج الأخلاقي ببيان جامع، إذ روي عن أبي الربيع الشامي، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام والبيت غاص بأهله، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه، فجلس أبو عبد الله عليه السلام وكان متكئاً ثم قال: «يا شيعة آل محمد، اعلموا أنّه ليس منّا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالقة من خالقه،

الدرس الرابع: مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل ٤١

ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، ومخالحة من مالحه، يا شيعة آل محمد اتَّقُوا اللَّهَ ما استطعتم ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(١).

فامتلاك النفس عند الألم هو جوهر المعالجة الأخلاقية، وهو الحدّ الفاصل بين إنسانٍ يعبر المحنة محتفظاً بإنسانيته وقيمه، وآخر يخرج منها وقد خسر اتزانَه وأخلاقه.

وبذلك، تغدو المعالجة الأخلاقية للألم حراسةً للقيم قبل البحث عن الراحة، وضبطاً للسلوك قبل تهذيب الشعور؛ ليكون الألم معبراً للنضج والوعي، لا سبباً للانقياس، ويخرج الإنسان من محتته أكثر اتزاناً، وأصدق التزاماً، وأعمق وعياً برسائلته الأخلاقية.

المحور الرابع: الصبر الواعي بوصفه طاقة تغيير لا حالة انتظار:

لا يُنظر إلى الصبر بوصفه حالة تعليقٍ للوعي أو تعطيلٍ للفعل إلى حين زوال الشدّة، بل يُفهم باعتباره قدرةً على إدارة الابتلاء، وضبط مساره داخل النفس والسلوك.

فالصبر، بهذا المعنى، ليس سكوتاً عن الألم، ولا استسلاماً لتأثيره، بل وعيٌ يُمسك زمام التجربة، ويحول دون انزلاقها إلى فوضى نفسية أو انحرافٍ أخلاقي.

ولهذا ارتبط الصبر في النصوص الشرعية بالإيمان ارتباطاً بالبنية لا الزينة؛ إذ روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، كذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»^(١).

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٦٣٧.

٤٢ دروس في الأخلاق

فكما لا قوام للجسد بلا رأس، لا يستقيم الإيمان بلا صبرٍ واعٍ يضبط ردود الفعل، ويمنع الانهيار الداخلي عند الشدة. والصبر الواعي لا يُحتزل في تحمُّل الألم، بل يتجلى في كيفية التعامل معه؛ فهو يفرض التمهُّل قبل القرار، ويمنع الاستجابة الانفعالية، ويحوّل المحنة من عامل استنزافٍ نفسي إلى مساحةٍ لإعادة ترتيب الموقف، وتقويم السلوك، واستعادة التوازن.

ومن هنا، يكون الصبر الواعي طاقةً تنظيمٍ داخلي، لا مجرد تحمُّل، وأداة حفظٍ للقيم في لحظة الضغط، لا حالة انتظارٍ سلبي لما سيأتي، وبه يتحوّل الابتلاء من عبءٍ يثقل الإنسان إلى اختبارٍ يُعيد بناء وعيه، ويُرسّخ حضوره الأخلاقي في مواجهة الواقع.

المحور الخامس: صناعة الأمل من داخل المحنة:

الأمل الواعي لا يتشكّل بالهروب من الواقع أو إنكار قسوته، بل يولد من حسن فهم المحنة، وإدارتها أخلاقياً وسلوكياً، وتحويلها إلى نقطة انطلاقٍ للتغيير والبناء.

فالمحنة، حين تُواجه بوعي، لا تُغلق أبواب المستقبل، بل تعيد ترتيب مساراته، وتكشف إمكاناتٍ كانت كامنة في النفس ولم تظهر إلا تحت الضغط. إنَّ صناعة الأمل تبدأ من مراجعة الأولويات والقيم التي تحكم السلوك، لأنَّ كثيراً من الأزمات إنما تكشف خللاً في ترتيب المقاصد لا في أصل الطريق، ثم تأتي مرحلة التعلم من التجربة، حيث تتحوّل المعاناة إلى خبرة تُحصّن الإنسان

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٨٧.

الدرس الرابع: مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل ٤٣

من تكرار الأخطاء، وتمنحه قدرةً أعلى على اتّخاذ القرار الرشيد، وبهذا الوعي، تُعاد توجيه الطاقة النفسية من دائرة الإحباط والانفعال إلى ميادين البناء والعطاء، فيغدو الأمل قوةً دافعة لا عبئاً مُعطّلاً.

كما أن تثبيت الأمل يحتاج إلى أهدافٍ واقعية قابلة للتحقق، تُعيد للإنسان ثقته بنفسه، وتمنحه شعور القدرة على الفعل والتقدم، ولو بخطواتٍ صغيرة، لكنّها ثابتة.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بوضوح عميق، إذ قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥-٦).

في إشارةٍ إلى أن العسر ليس حالةً مغلقة، بل يحمل في داخله بذور الفرج، وأن الأمل ليس وعداً خارجياً منفصلاً عن الأمل، بل حقيقة تنبثق من صميمه. وبذلك، تتحوّل المحنة من تجربة استنزاف إلى منارة أمل، ومن حالة انكسار إلى فرصة نهوض، ومن نهايةٍ متوهّمة إلى بدايةٍ جديدة، أكثر نضجاً، وأرسخ وعياً، وأقوى حضوراً في مسار الحياة.

أسأل الله تعالى أن يجعلَ محننا طريقاً للوعي والنضج، ويرزقنا صبراً واعياً وبصيرةً في المواقف، ويحوّل آلامنا إلى بوارق أمل وقوّة، إنّه سميعٌ مجيب.

* * *

الدرس الخامس

رسالة القلم

كيف نحصل على جيل قارئ؟

المقدمة:

تُمثِّل القراءة والقلم ركيزتين أساسيتين في مشروع بناء الإنسان، وصناعة وعيه، وتشكيل شخصيته الفكرية والأخلاقية؛ إذ لا يُراد لهما أن يكونا مجرد وسيلة لاكتساب المعلومات، ولا نشاطاً ثقافياً عابراً، بل رسالة تربوية وحضارية عميقة الأثر، تُسهم في إعداد جيلٍ يمتلك القدرة على الفهم، وحسن التحليل، ورشد القرار، وتحمل المسؤولية.

وقد افتتح الوحي الإلهي مسيرة الرسالة الخاتمة بالأمر بالقراءة، في دلالة واضحة على مركزية العلم والمعرفة في بناء الإنسان، فقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥).

فالقراءة هنا ليست فعلاً منفصلاً عن القيم، بل مرتبطة باسم الرب، ومتصلةً بالقلم، بوصفه أداة التعليم، ووسيلة انتقال المعرفة، وجسر الوعي بين الإنسان وربّه وواقعه.

وفي هذا السياق، ورد عن النبي الأكرم ﷺ قوله: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد»^(١).

وهو توجيهٌ صريحٌ إلى أن طلب العلم - ومن أبرز مصاديقه القراءة - مسارٌ دائم، لا يتقيدُ بمرحلةٍ زمنية، ولا ينحصر بسنٍّ أو ظرفٍ معيَّن. وبالكتاب والقلم يُصقل العقل، وتُهدَّب النفس، ويُبنى الوعي؛ إذ هما من أهم أسباب تحصيل النور المعرفي الذي به يميّز الإنسان، ويهتدي، ويحسن الاختيار.

يتَّضح من ذلك أن الحديث عن جيلٍ قارئٍ لا يُراد به مجرد امتلاك مهارة القراءة أو ممارسة ثقافيةٍ محدودة، بل هو حديثٌ عن بناءٍ تربويٍّ، تتداخل فيه المنهجية مع المعالجة، وتتنظم فيه الوسائل مع الغايات، ليثمر وعياً راسخاً وشخصيةً مسؤولة، فالقلم في هذا السياق ليس أداة محايدة، والقراءة ليست فعلاً عابراً، بل هما تكليفٌ أخلاقي، ومسؤوليةٌ معرفية، يُبتلى بها الإنسان في وعيه وخياره وسلوكه.

ومن هنا، كان لابدّ من الوقوف عند جملةٍ من الأمور الأساس التي يتوقّف عليها تحقيق هذا الهدف، وضبط مساره، وتجنّب انحرافه عن غايته التربوية.

بيان الأمور الثلاثة في صناعة جيلٍ قارئٍ:

ولكي نتمكّن من صناعة جيلٍ قارئٍ وواعٍ، لابدّ من معالجة هذا المشروع من خلال ثلاثة أمورٍ محورية، يُكمّل بعضها بعضاً، وتمثّل بمجموعها الإطار التربوي العملي لهذا المسار.

(١) موسوعة العقائد الإسلامية - محمد الريشهري: ج ٢، ص ٢٢٠.

الدرس الخامس: رسالة القلم - كيف نحصل على جيل قارئ؟ ٤٧

الأمر الأول: المنهجية الصحيحة في المطالعة (كيف نقرأ).

الأمر الثاني: معالجة العزوف عن القراءة (تشخيص الأسباب وسبل المعالجة).

الأمر الثالث: آثار القراءة في صناعة الجيل الواعي (ماذا نصنع بالقراءة).
وسيصار إلى بيان كل واحد من هذه الأمور بياناً مترابطاً، يراعي البُعد المعرفي، ويؤسّس للبُعد التربوي، وينعكس على السلوك العملي؛ بما ينسجم مع الرؤية الإسلامية في بناء الإنسان الواعي، القادر على الفهم، والنقد، وتحمل المسؤولية.

الأمر الأول: المنهجية الصحيحة في المطالعة:

لكي تؤتي القراءة ثمارها التربوية والفكرية، لابدّ من إخراجها من كونها فعلاً عابراً أو ترفاً ذهنيّاً، إلى كونها ممارسةً واعيةً ومنظمةً، تُدار بمنهجية واضحة، وتُمارس بقصدٍ ووعي.

فالكتاب لا يصنع قارئاً ما لم يُحسن القارئ التعامل معه، قراءةً وفهماً واستثماراً.

وتقوم المنهجية الصحيحة في المطالعة على جملةٍ من المرتكزات العملية، من أهمّها:

أولاً: القراءة الموجهة:

وذلك باختيار الكتب التي تُناسب المرحلة العمرية، والمستوى الفكري، وحاجة القارئ الواقعية، مع تقديم ما يُنمّي العقل، ويُرسّخ القيم، ويُسهّم في بناء الوعي، على ما يستهلك الوقت دون أثرٍ تربوي.

ثانياً: القراءة التحليلية:

وهي الانتقال من مجرد تلقي المعلومة إلى التفكير فيها، وفهم دلالاتها، ومقارنتها بما يملكه القارئ من معارف سابقة، وتمييز ما فيها من قوة أو ضعف، بما يُنمّي ملكة الفهم والنقد، ويمنع التلقي السطحي.

ثالثاً: تدوين الملاحظات وضبط الفوائد:

إذ إنّ الكتابة أثناء المطالعة تُحوّل القراءة إلى فعل حيّ، وتُثبت الفكرة، وتُعين على استحضارها عند الحاجة، وتربط بين العلم والعمل، فلا تبقى المعرفة حبيسة الذهن أو عرضة للنسيان.

رابعاً: المراجعة وربط الأفكار:

وذلك بالعودة إلى ما قُري، وربط مسأله بعضها ببعض، واستحضار نتائجه في ضوء الواقع العملي، بما يُسهّم في تكوين رؤية متماسكة، لا معلومات متناثرة.

وبهذا المسار، تتحوّل المطالعة إلى عملية تربوية متكاملة، تُنمّي الوعي، وتُدرّب العقل على الفهم والتحليل، وتُهيئ القارئ ليكون فاعلاً في فكره، ومسؤولاً في سلوكه، لا مجرد مستهلك للنصوص والمعارف.

الأمر الثاني: معالجة العزوف عن القراءة:

العزوف عن القراءة ظاهرة متنامية، لها أبعاد نفسية، واجتماعية، وتربوية، ولكي نُعيد الإنسان إلى الكتاب، لابدّ من معالجة الأسباب العملية:

١ - التشخيص النفسي والاجتماعي: دراسة أسباب الانقطاع عن الكتاب، مثل الانشغال بالملهيات، ضعف الدافعية، أو فقدان القدوة التربوية.

الدرس الخامس: رسالة القلم - كيف نحصل على جيل قارئ؟ ٤٩

٢ - التحفيز الثقافي: تعزيز قيمة القراءة في الأسرة والمدرسة والمؤسسات الدينية، وتشجيع الأطفال والشباب على اعتبار الكتاب رفيقاً لا عبئاً.

٣ - توفير البيئة الملائمة: خلق مساحات هادئة للقراءة، وإتاحة مصادر متنوّعة، مع ربط القراءة بالأنشطة العملية والمناقشات الفكرية.

٤ - تقديم القدوة العملية: على المعلمين، الآباء، والقادة الدينيين أن يكونوا نماذج حية للقراءة اليومية والممارسة العلمية.

بهذه المعالجات العملية، يتحوّل القارئ من شخص متردّد أو متأثّر بالملهيات إلى شخص واعٍ، يربط بين المعرفة والفعل، ويجعل القراءة جزءاً من حياته اليومية.

الأمر الثالث: آثار القراءة في صناعة الجيل الواعي:

القراءة لا تهدف إلى معرفة الحقائق فحسب، بل تصنع الإنسان الواعي الذي يمتلك أدوات الفهم، والتحليل، واتخاذ القرار.

ومن أبرز آثارها العملية:

١ - تطوير الوعي الذاتي والاجتماعي: تساعد القراءة على فهم النفس والآخر، وتحليل الأحداث والظواهر.

٢ - صقل الشخصية وبناء القيم: القراءة توسع مدارك العقل والروح، وترسخ مفاهيم الصدق، والأمانة، والعدالة، والتسامح.

٣ - تعزيز القدرة على النقد والتحليل: تمكّن القارئ من تقييم المواقف، واتخاذ قرارات صائبة، ومواجهة التحديات بوعي.

٥٠ دروس في الأخلاق

٤ - إعداد قادة ومفكرين: من خلال القراءة، يُنشأ جيل قادر على المشاركة الفاعلة في المجتمع، وتحمل المسؤولية الثقافية والأخلاقية. وبذلك تصبح القراءة أداة عملية لصناعة جيل واعٍ، مثقف قادر على مواجهة التحديات، وتحقيق التغيير الإيجابي في المجتمع.

الخلاصة:

إن رسالة القلم ليست مجرد شعار نظري، بل هي واقعٌ يحتاج إلى التطبيق العملي، واهتمام تربوي متواصل، وإدراك عميق لأهمية القراءة في تشكيل الجيل، فالقراءة الحقيقية تبدأ بالمنهجية الصحيحة، وتستمر بالمعالجة الفعالة للعزوف عنها، وتثمر في بناء وعي الإنسان وصقل شخصيته.

إن اهتمام الأسرة بالكتاب، والمدرسة بالقراءة الموجهة، والمؤسسات الدينية والثقافية بتوفير البيئة الحاضنة للقراءة، هو ما يضمن تحقيق أثرها الكامل في المجتمع، والأمل في بناء جيل قارئ مرتبط بمدى الجهد المبذول في تعزيز قيم التعلم، ونشر حبّ الكتاب، وغرس عادة المطالعة منذ الصغر.

ومن الخطوات العملية لصناعة جيل قارئ:

أ - تخصيص أوقات يومية للقراءة: حتى لو كانت قصيرة، مع المتابعة والتشجيع.

ب - إقامة نوادي وورش قراءة: لتبادل المعرفة والأفكار، وتحفيز النقاش العقلائي.

ج - ربط القراءة بالتطبيق العملي: بحيث يرى القارئ أثر المعرفة على حياته ومجتمعه.

الدرس الخامس: رسالة القلم - كيف نحصل على جيل قارئ؟ ٥١

د - تعليم النقد والتحليل: كي لا تقتصر القراءة على التلقين، بل تتحوّل إلى ممارسة فكرية نشطة.

فالجيل الذي يقرأ، هو جيل يمتلك القدرة على الوعي الذاتي، واتخاذ القرار الصائب، ومواجهة التحديات بعقل متزن، وقلب واع، وروح متحمسة للخير والبناء، والكتاب والقلم هما الأداة الأساسية في هذا المسار، وهما الوسيلة التي تُخرج الإنسان من حالة الجمود الفكري، وتحوّله إلى فاعل مؤثر في مجتمعه.

وختاماً، فإن صناعة جيل قارئ ليست مجرد هدف ثقافي، بل هي مسؤولية تربوية وأخلاقية واجتماعية، تتطلب تعاون الأسرة والمدرسة والمؤسسات، وسلوكاً عملياً مستمراً، ليكون القلم أداة هداية، والكتاب نافذة للوعي، والمطالعة طريقاً لصناعة الإنسان الواعي، المثقف، والفاعل.

* * *

الدرس السادس

الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي

منظور قرآني وتربوي

المقدمة:

الحياء والعفة خُلِقان أصيلان في فطرة الإنسان السويّ، بهما تُصان كرامته، ويُضبط سلوكه، وتُحفظ حدوده في علاقته بالله تعالى ومع الناس، ومع أنّ هذين الخُلُقَيْن مودعين في النفس الإنسانية، فإنَّهما بحاجة دائمة إلى رعاية وتربية واعية، تحميَّهما من الذبول والانحراف، لا سيَّما في زمن الانفتاح الرقمي، حيث يتدفَّق المحتوى غير المنضبط، ويصبح الفرد معرضاً للتأثير السلبي إذا غاب عنه الوعي الأخلاقي والفطري.

فالحياء والعفة ليسا ضعفاً في الشخصية، ولا انكماشاً عن الفعل كما يُصوَّر أحياناً، بل هما ثمرة التقاء الفطرة بالعقل، وضابطان أخلاقيان رصينان يوازن بين الدوافع والشهوات، ويحولان دون تحوُّل الجِراءِة إلى وقاحة والانفتاح إلى انفلات، ويجعلان السلوك الفردي متسقاً مع الوعي الداخلي.

وقد أوجب القرآن الكريم ضبط النفس في هذا المجال، وأبرز الحياء والعفة كقيم عملية لا شعوراً عابراً، فقال تعالى للمؤمنين: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا

يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿النور: ٣٠-٣١﴾.

وهنا يتّضح أنّ الحياء والعفة ليسا مجرد شعور داخلي، بل سلوك عملي ظاهر، مرتبط بالوعي والأخلاق، ويؤثر في كلّ تصرفات الإنسان، وقد صور القرآن الحياء كذلك على لسان ابنة شعيب، قال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ (القصص: ٢٥)، فالآية تشير إلى أنّ الحياء هنا ليس شعوراً باطنياً فحسب، بل سلوك ظاهر منضبط، ينبع من الوعي الأخلاقي، ويظهر في تصرفات الإنسان، بعيداً عن الخوف أو الضعف.

وقد أكّد أهل البيت عليه السلام على المكانة المحورية للحياء في البناء الإيماني والأخلاقي، فجعلوه معياراً لصدق الإيمان وحصناً للنفس من الانحراف، فقد روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قوله: «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة»^(١)، وهو ربط واضح بين خلق الحياء وبين النجاة الروحية والارتقاء الأخلاقي، بما يدلّ على أنّ الحياء ليس قيمة سلوكية ثانوية، بل مكّون أصيل في حقيقة الإيمان.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١٠٦.

الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي منظور قرآني وتربوي ٥٥

وفي تأكيدٍ أشدّ، قال عليه السلام: «لا إيمان لمن لا حياء له»^(١)، ليدلّ بوضوحٍ على أن فقدان الحياء ليس خللاً سلوكياً عابراً، بل انقطاعٌ عن حقيقة الإيمان ومقامه، وهو توجيةٌ عمليٌّ يجعل العفة والحياء ضابطين يوميّن لحماية النفس والمجتمع من الانزلاق الأخلاقي.

ومن هذا المنطلق، لا يُتناول الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي بوصفهما خطاباً وعظياً مجرداً، ولا قيماً مثالية منفصلة عن الواقع، بل ضمن مقاربة تربوية سلوكية واعية، تُعنى بصيانة الفطرة، وتفعيل هذا الخلق عملياً في الحياة اليومية، بما يُمكن الإنسان من ضبط سلوكه وحسن اختياره في بيئة تتكاثف فيها المؤثرات.

فالحياء والعفة ليسا مجرد حالة نفسية، بل ضابطان عمليّان لاستقامة السلوك، وركيزتان في بناء الشخصية المسؤولة، وحفظ التوازن بين مقتضيات الفطرة ومتطلبات الواقع المعاصر.

وانطلاقاً من ضرورة الانتقال بهذين الخلقين من حيز المفهوم إلى حيز الممارسة، جاءت هذه المحاور لمعالجتهما بوصفهما سلوكاً يومياً يتشكّل داخل الأسرة، ويتأثر بالخطاب الديني، ويتفاعل مع البيئة الرقمية، ضمن توجيه واقعي يوازن بين الوعي والانضباط.

وعلى هذا الأساس، تتوزّع المحاور الآتية:

المحور الأوّل: العوامل المؤثرة في ترسيخ الحياء والعفة كسلوك عملي.

المحور الثاني: كيفية التعامل مع المحتوى غير الأخلاقي عند ظهوره.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١٠٦.

المحور الثالث: دور الأسرة في المتابعة الواعية لا في التجسُّس.

المحور الرابع: دور الخطاب الديني في التوجيه الواقعي.

المحور الخامس: صناعة القدوة في البيت والمجتمع.

المحور السادس: خطوات عملية لتثبيت العفة في السلوك اليومي.

المحور الأول: العوامل المؤثرة في ترسيخ الحياء والعفة كسلوك عملي:

الحياء والعفة خُلِقان أصيلان، مزروعان في فطرة الإنسان السوية، لكنها لا يثبتان إلا بفعل متواصل وعناية واعية، فالثبات السلوكي لهذا الخلق يتطلب إدراك الإنسان لمقامه الأخلاقي، ومراقبة نفسه، وتلقي المؤثرات التربوية الصحيحة، بحيث يتحوّل الميل الفطري إلى ممارسة عملية، تظهر في أقواله وأفعاله، وتحفظ له كرامته ووقاره أمام نفسه والآخرين.

ومن أهمّ العوامل التي تُرسِّخ الحياء والعفة في النفس، ما يلي:

١ - القدوة العملية:

فالتربية على الحياء والعفة تبدأ بالمشاهدة والتأثر بمن هم أعلى مكانة أخلاقية، سواء في الأسرة أو المجتمع.

٢ - المراقبة الذاتية:

وعى الإنسان بسلوكه الداخلي والخارجي، وتمحيص ما يفكر فيه ويشاهد ويستمتع إليه، ليكون الحكم على النفس متسقاً مع قيم الحياء.

٣ - تعزيز القيم الأخلاقية:

عبر التوجيه الديني والقراءة النبوية والروايات المعصومية، فالاستدلال بالقرآن والسنة يُنمي الضمير ويقوّي إرادة الالتزام بالعفة.

الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي منظور قرآني وتربوي ٥٧

٤ - البيئة الحاضنة:

إذ إنَّ المحيط الاجتماعي والتربوي الذي يقدر الحياء ويدعمه، ويحاسب على الانحراف، يُسهم في ترسيخ هذا الخُلُق.

وبهذا المنظور، لا يُعدَّ الحياء والعفة مجردَّ شعور داخلي أو خصلة عابرة، بل هما منظومة أخلاقية متكاملة تتجذَّر في النفس عبر تربية واعية، وقدوة صالحة، وضبط ذاتي رصين، فتتحوَّل الفطرة الفطرية إلى ممارسة عملية متينة، تحفظ الكرامة، وتضبط السلوك، وتكون صهام أمان أمام الانحرافات والفتن، وميزاناً يبيِّن مقدار ثبات الإنسان على الحقِّ في اختبارات الحياة اليومية ومحنها.

المحور الثاني: كيفية التعامل مع المحتوى غير الأخلاقي عند ظهوره:

في زمن الانفتاح الرقمي، أصبح التعرُّض للمحتوى غير الأخلاقي واقعاً يومياً يواجه الفرد، وهو اختبار حقيقي للحياء والعفة، فإنَّ التحدي ليس مجردَّ تجنُّب المظاهر أو الشعور بالحرَج، بل تحويل الوعي الفطري إلى ممارسة عملية تحمي النفس والمجتمع، وفق المبادئ القرآنية والتوجيهات السلوكية لأهل البيت عليهم السلام.

فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن فكَّ عن مكروبٍ كربةً فكَّ الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»^(١).

وهذا لا يقتصر على ضبط العلاقات الاجتماعية فحسب، بل يمتد إلى ضبط النفس الفردية أيضاً، إذ ينبغي للإنسان أن يحمي قلبه وعقله وسلوكه من

(١) ميراث حديث شيعه - مهدي مهريزي وعلي صدرابي خويي: ج ١٧، ص ٤٢٣.

٥٨ دروس في الأخلاق

الانغماس فيما يهدد الفضيلة، وأن يتعد عن كل ما يمس الحياء والعفة، ومن خلال ذلك يتحقق التوازن بين الفطرة السليمة والضبط الأخلاقي، ويصير الفرد قادراً على مواجهة تدفق المؤثرات الرقمية المعاصرة بثبات ورشد.

فالقرآن الكريم يؤكد على هذا المعنى في توجيهه العملي للمؤمنين: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (النور: ٣٠).

وهذا يوضح أن حفظ النفس من الانحرافات الفكرية والرقمية جزء أصيل من الواجب العملي، وأن الوعي بالمحتوى المحرم يعد أول خطوة نحو ضبط السلوك، وحماية القلب من الانغماس في ما يهدد الحياء والعفة. وعليه، يمكن تحديد منهج عملي للتعامل مع المحتوى غير الأخلاقي في أربعة أبعاد:

١ - الوعي الفوري والخيار الواعي:

التعريف على المحتوى المسيء للحياء والعفة بمجرد ظهوره، وعدم الانجراف وراءه.

٢ - الإعراض والتحويل:

عند مواجهة المحتوى غير الأخلاقي، يجب على الإنسان أن يبعد نفسه عنه فوراً، ويشغل وقته وأنشطته بما ينفع عقله وروحه، فهذا الإبعاد ليس مجرد تجنب، بل تطبيق عملي للحياء والعفة، يحول التجربة الرقمية من خطر محتمل إلى فرصة لتقوية ضبط النفس، وتربية السلوك على الحكمة والاعتدال.

الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي منظور قرآني وتربوي ٥٩

٣ - المراجعة الداخلية والتقويم الذاتي:

على الإنسان أن يُخضع نفسه للمحاسبة بعد التعرُّض لهذا النوع من المحتوى، فيُحلل أسباب الانجذاب إليه، ويواجه دوافع النفس والفضول غير المنضبط، لتتحوّل التجربة من موضع ضعف إلى محطة وعي وتقويم، تُسهم في ترسيخ ضبط النفس وتعزيز الحياء والعفة عملياً.

٤ - تعزيز القدوة العملية:

يجب الالتفات إلى أثر السلوك الشخصي في المحيط الأسري والاجتماعي، ولا سيما أمام الأطفال والشباب؛ إذ إنّ كلّ موقف يتّخذه الإنسان إزاء المحتوى الرقمي يُسهم في ترسيخ نموذج أخلاقي أو سلوكي في أذهان الآخرين. وعليه، فإنّ الالتزام بالحياء والعفة عند مواجهة ما يهدّد القيم لا يُعدّ سلوكاً فردياً فحسب، بل تعليماً عملياً حياً، تُترجم به الوصايا الإلهية والتوجيهات الصادرة عن أهل البيت (عليه السلام) في واقع الحياة اليومية.

بهذه الخطوات، يتحوّل المحتوى غير الأخلاقي من تهديد خارجي إلى فرصة لإحياء الحياء والعفة عملياً، ويصبح ضبط النفس ممارسة تربوية يومية، تجعل الفرد قادراً على حماية نفسه والمجتمع، ويجعل من الحياء والعفة ركيزتين أساسيتين لبناء شخصية مسؤولة متزنة، وفق أسس أهل البيت (عليه السلام).

ومن هنا، يتّضح أنّ التعامل مع المحتوى غير الأخلاقي لا يقف عند حدود ردّة الفعل الآنية، بل يتطلّب وعياً تربوياً وسلوكياً متكاملًا؛ إذ يغدو ضبط النفس أمام هذا المحتوى ممارسةً أخلاقيةً واعية، تربط بين الفطرة السليمة، وحضور الوعي، والانضباط القيمي.

٦٠ دروس في الأخلاق

وبهذا يرتقي الفرد في تعامله مع التحديات الرقمية المعاصرة، محققاً التوازن بين سعة الوصول إلى المعرفة، وصيانة الفضيلة وحفظ الكرامة.

المحور الثالث: دور الأسرة في المتابعة الواعية لا في التجسس:

تمثل الأسرة الحاضنة الأولى لتكوين السلوك الأخلاقي، ومنها تتشكل البذور الأولى للحياء والعفة، لا بوصفها أوامر مفروضة، بل قيماً معيشة تُغرس في النفس وترسخ في الوجدان، وفي زمن الانفتاح الرقمي، حيث تداخلت العوالم الخاصة والعامة، وتعمّدت سبل التأثير، تبرز مسؤولية الأسرة بوصفها خط الدفاع التربوي الأول، لا عبر السيطرة القهرية، بل من خلال الوعي، والحضور، وحسن التوجيه.

غير أن الفرق جوهري بين المتابعة التي تبني الضمير، والتجسس الذي يهدم الثقة.

فالتجسس لا يصنع حياءً، بل يُنتج خوفاً مؤقتاً، ولا يؤسس عفةً، بل يدرّب على الإخفاء والمراوغة، ولهذا جاء النهي القرآني صريحاً في رفض هذا الأسلوب، لما يحمله من آثار تربوية مفسدة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (الحجرات: ١٢).

وهو نهي لا يقتصر على البعد الاجتماعي، بل يؤسس لمنهج أخلاقي في التربية، قوامه احترام الخصوصية، وصيانة الكرامة، وبناء العلاقة على الثقة لا الارتياح.

وعلى هذا الأساس تؤكد مدرسة أهل البيت عليه السلام أن مسؤولية الأهل لا تقوم على المعالجة اللاحقة بقدر ما تركز على الرعاية السابقة، ولا على ردّ الفعل

الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي منظور قرآني وتربوي ٦١

بقدر ما تعتمد غرس القيم قبل اصطدام النفس بالمغريات، وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الحقيقة التربوية العميقة بقوله: «إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته»^(١).

وهو بيانٌ بالغ الدقة، يُحمّل الأسرة مسؤولية المبادرة في تشكيل الوعي الأخلاقي، قبل أن تسبق المؤثرات الرقمية إلى توجيه السلوك وصياغة الميول. وتتحقّق المتابعة الواعية حين تتحوّل الأسرة إلى مرجعية أخلاقية حاضرة، تشرح، وتبيّن، وتربط السلوك برقابة الله تعالى، لا برقابة البشر، وتُنشئ في الأبناء حسّ المسؤولية بدل ثقافة الخوف.

كما أنّ التزام الوالدين العملي بضوابط الحياء والعفة في تعاملهم الرقمي يمثل أقوى أدوات التربية، إذ لا يستقيم توجيهٌ بلا قدوة، ولا يثبت سلوكٌ بلا نموذج حيّ.

وعليه، فإنّ الأسرة الواعية لا تحرس الشاشات، بل تُربي الضمائر، ولا تُحصى الأخطاء، بل تبني ميزاناً داخلياً يُقوّم السلوك عند الغياب قبل الحضور. وبهذا، ينشأ الأبناء وهم يحملون الحياء والعفة بوصفهما اختياراً نابعاً من الوعي، لا استجابةً لضغط، وسلوكاً راسخاً، لا قيداً عابراً.

المحور الرابع: دور الخطاب الديني في التوجيه الواقعي:

لا ينهض الخطاب الديني بوظيفته الرسالية إذا اقتصر على عرض الأحكام بصيغتها الجافة، أو اكتفى بالتنفير والتحذير دون بناء الوعي، بل إنّ مسؤوليته الحقيقية تتجلى في تحويل القيم الإيمانية إلى منظومة سلوكية حية، قادرة على ملامسة الواقع، وضبط حركة الإنسان في خضمّ التحديات الأخلاقية المعاصرة.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام (تحقيق صالح): ص ٧٥٨.

فالخطاب الديني، ولا سيما في قضايا الحياء والعفة، مطالبٌ بأن يجمع بين صلابة المبدأ، وواقعية المعالجة، وحكمة الأسلوب؛ فلا يُفرِّغ القيم من محتواها بدعوى مسايرة الواقع، ولا يعالج الواقع بمنطق المثاليات المنفصلة عن ظروف الناس وضغوطهم، وإنما يقوم على بيان الحق بوضوح، مع فتح مسارات الإصلاح، وتربية الضمير، وبعث روح المراقبة الذاتية.

وقد جسّد أهل البيت عليهم السلام هذا المنهج في خطابهم، حيث لم يتعاملوا مع الانحراف بوصفه مجرد مخالفة تُدان، بل حالة تحتاج إلى تقويم تدريجي، وإيقاظ للوعي، وإحياء للفطرة، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية»^(١).

وهي قاعدة تربوية عميقة، تُشير إلى أنّ أثر الخطاب لا يتحقّق بالكلمة وحدها، بل بما يصاحبها من سلوك، وأتزان، ومصداقية.

ومن هنا، فإنّ الخطاب الديني الفاعل في زمن الانفتاح الرقمي هو ذاك الذي يُعيد تعريف الحياء والعفة بوصفهما وعياً أخلاقياً ناضجاً، لا انغلاقاً ولا ضعفاً، ويُقدّمهما كقوّة داخلية تحفظ للإنسان كرامته، وتمنحه القدرة على ضبط نفسه أمام سيل المؤثرات.

كما أنّ هذا الخطاب يتحمّل مسؤولية تصحيح المفاهيم، وبناء الثقة بين الدين والواقع، وإشعار الفرد بأنّ الالتزام ليس عبئاً، بل صيانة للنفس، وحفظاً للهوية، وسبيلٌ للطمأنينة والاستقامة.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٧٨.

الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي منظور قرآني وتربوي ٦٣

وبذلك، يتحوّل الخطاب الديني من خطابٍ إرشاديٍّ نظريٍّ إلى مرجعيةٍ سلوكيةٍ واعيةٍ، تُسهم في تثبيت الحياء والعفة في السلوك اليومي، وتُعين الإنسان على العبور الآمن في بيئةٍ تتكاثر فيها الفتن، وتشتدّ فيها ضغوط الانحراف.

المحور الخامس: صناعة القدوة في البيت والمجتمع:

إنّ ترسيخ الحياء والعفة لا يتحقّق بالخطاب وحده، ولا تُنشئه التوجيهات النظرية مهما بلغت دقّتها، ما لم تُترجم إلى نماذج حية تُجسّد القيم في السلوك اليومي.

فالإنسان، ولا سيّما في مراحل التكوين الأولى، يتعلّم بالاقتداء أكثر مما يتعلّم بالأمر والنهي، وتُبنى شخصيّته من خلال ما يراه ماثلاً أمامه من مواقف وتصرفات.

ومن هنا، تبرز خطورة القدوة وأثرها البالغ في البيت والمجتمع؛ إذ يتحوّل السلوك اليومي للوالدين، والمريّين، وأهل الالتزام، إلى رسالة صامتة ترسخ القيم أو تهدمها.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى حين قال: «من نصّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدّبها أحق بالإجلال من معلّم الناس ومؤدّبهم»^(١)، وهو توجيهٌ أخلاقي دقيق، يجعل إصلاح السلوك الذاتي مقدّمة لازمة لإصلاح الآخرين.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١٦.

فالقُدوة في باب الحياء والعفة لا تعني التشدد أو التظاهر بالصلاح، بل تعني الاتزان، وحسن الاختيار، وضبط التصرفات في المواقف اليومية، ولا سيما في التعامل مع الوسائط الرقمية، حيث يكون الفعل أبلغ من القول، والصمت المقرون بالموقف أعمق أثراً من الوعظ المباشر.

وفي المجتمع، تتسع دائرة التأثير، فيغدو السلوك العام معياراً غير معلن يُحتكم إليه؛ فحين يرى الشباب أن الحياء يُمارَس بوصفه وعياً وقوة داخلية، لا خجلاً ولا ضعفاً، يتحوّل إلى قيمة مرغوبة، لا عبئاً مفروضاً، وأما إذا غابت القدوة، ووقع التناقض بين الخطاب والسلوك، فإن القيم تفقد مصداقيتها، ويُفتح الباب أمام التبرير والانفلات.

وعليه، فإن صناعة القدوة السلوكية تمثل ركيزة أساسية في تثبيت الحياء والعفة، لأنها تُحوّل القيم من مفاهيم مجردة إلى واقعٍ مُعاش، وتبني في النفوس ميزاناً داخلياً يميّز به الإنسان بين ما يليق بكرامته وما يُنافيها، في البيت كما في المجتمع.

المحور السادس: خطوات عملية لتثبيت العفة في السلوك اليومي:

إن العفة لا تُرسَخ بالنية المجردة، ولا تثبت بالمواقف العابرة، بل تحتاج إلى برنامجٍ عمليٍّ يوميٍّ، يحوّل القيم إلى سلوك، والمبادئ إلى ممارسة، ويجعل الإنسان في حالة وعيٍّ دائمٍ أمام نفسه قبل غيره، فالعفة ملكةٌ تُكتسب بالتدرُّج، وتُصان بالمجاهدة، وتضعف بالإهمال والغفلة.

الخطوة الأولى: المراقبة الواعية للنفس:

وتتمثل في أن يعيش الإنسان حالة الحضور الداخلي، فينتبه لمواضع ضعفه، ويدرك ما يجره إلى الانزلاق، فيتقدّم بالتحفُّظ قبل وقوع الخطأ، لا بالندم بعده،

الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي منظور قرآني وتربوي ٦٥

وقد أكد أمير المؤمنين عليه السلام هذا الأصل بقوله: «من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم»^(١).

الخطوة الثانية: تنظيم البيئة اليومية، ولا سيما الرقمية منها:

فكثرة التعرّض للمثيرات تُضعف الإرادة ولو مع سلامة النية، ولذلك فإنّ اختيار ما يُتّبع، وما يُترك، وما يُحذف، يُعدّ فعل عَقَّةٍ عملياً، لا مجرد إجراء تقني، وفيه صيانةٌ للنفس قبل أن يكون امتثالاً لحكم شرعي.

الخطوة الثالثة: ملء الفراغ بما هو نافع:

فإنّ النفس إن لم تُشغَل بالحقّ شُغِلت بالباطل، وإن لم تُغذَّ بالمعرفة والعمل الصالح انجذبت إلى ما يضعفها، ومن هنا كان الاشتغال بالعلم، والعبادة، والخدمة، والاهتمامات الهادفة، من أهم أسباب تثبيت العفة واستدامتها.

الخطوة الرابعة: صيانة الخواطر قبل انحدارها إلى السلوك:

إنّ الانحراف لا يقع دفعةً واحدة، ولا ينشأ بغتة، بل يتسلّل عبر خاطرةٍ عابرة، تتحوّل مع الإهمال إلى ميلٍ مستقرّ، ثم تستحكم فعلاً وسلوكاً، ومن هنا، كانت حراسة الفكر أصلاً متقدّماً في بناء العفة، ومقدّمةً ضرورية لحفظ الجوارح، إذ إنّ كبح الخاطر في أوّل مراحلها يمثل أدقّ مراتب المجاهدة وأعمقها أثراً.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٤٧.

٦٦ دروس في الأخلاق

وقد حذر أهل البيت عليهم السلام من التساهل مع المقدمات والاقتراب من موارد الفتنة، لما لذلك من أثر تراكمي خطير، حيث ورد عنهم عليهم السلام: «ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه»^(١).

وهو توجية تربوي بالغ، يؤكد أن الوقاية في دائرة الفكر أرسخ من العلاج بعد وقوع السلوك، وأن صيانة الباطن هي الأساس المتين لاستقامة الظاهر.

الخطوة الخامسة: الاستعانة بالله تعالى واستدامة الصلة به:

فإن النفس ضعيفة إن وُكِلَتْ إلى نفسها، قوية إن استندت إلى ربها، وذلك بالدعاء، وطلب العون، واستحضار رقابته في السر والعلن، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩). وبذلك تتحوّل العفة من حالة مؤقتة إلى خلق راسخ، ومن ردة فعل أمام الخطأ إلى أسلوب حياة، يضبط السلوك، ويصون الكرامة، ويثبت الإنسان على جادة الاستقامة، مهما تغيرت الظروف وتكاثفت التحديات.

* * *

(١) مجموعة رسائل - الفيض الكاشاني: ج ٣، ص ٢١٣.

الدرس السابع

رؤى الحياة في نهج البلاغة (اللين والطيب)

المقدمة:

يمثل نهج البلاغة مدرسة متكاملة في بناء الإنسان وإدارة الحياة، حيث لا يقتصر خطابه على بيان الأحكام أو ترسيخ العقائد، بل يتجاوز ذلك إلى تهذيب السلوك وصناعة الشخصية المتوازنة، القادرة على الجمع بين القوة والرحمة، والحزم واللين.

ومن جملة القيم المحورية التي أكدها أمير المؤمنين عليه السلام في رؤيته للحياة خلُق اللين والطيب، بوصفهما منهجاً أخلاقياً وتربوياً، لا مجرد سلوكٍ ظرفيٍّ أو استجابة عاطفية.

فاللين في منطق الإمام علي عليه السلام ليس مظهراً للضعف، ولا تراجعاً عن الحق، بل هو أسلوبٌ واعٍ في الإصلاح، يقوم على الحكمة، وضبط النفس، وحسن تقدير المواقف.

أمّا الطيب، فهو صفاء الباطن الذي ينعكس سكينَةً في القول، واتزاناً في الفعل، وسلاماً في التعامل، فيغدو الإنسان به أقرب إلى القلوب، وأقدر على التأثير، وأثبت في مواجهة التحديات.

ومن هنا، يتَّضح أنَّ اللِّين والطَّيب في نهج البلاغة ليسا خُلُقَيْن منفصلَيْن عن الواقع، بل ركيزتين أساسيتين في بناء الفرد والأسرة والمجتمع، وفي تحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي، وفي رسم منهجٍ متوازنٍ للتعامل مع الناس، يفرِّق بين الحكمة والمداهنة، وبين الرحمة والتفريط.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، تُطرح محاور هذا الدرس للوقوف على أبعاد هذين الخُلُقَيْن كما قدَّمهما أمير المؤمنين عليه السلام، وبيان أثرهما العملي في الحياة الفردية والاجتماعية، وذلك من خلال المحاور الآتية:

محاور الدرس:

١ - مفهوم اللِّين والطَّيب في نهج البلاغة وأبعادهما الأخلاقية والتربوية في بناء الفرد والأسرة.

٢ - اللِّين قوَّة إصلاح لا ضعف: قراءة في منهج الإمام علي عليه السلام.

٣ - حدود اللِّين وضوابطه بين الحكمة والمداهنة في الواقع المعاصر.

٤ - انعكاسات اللِّين والطَّيب على الاستقرار النفسي والاجتماعي.

مفهوم اللِّين والطَّيب في نهج البلاغة وأبعادهما الأخلاقية والتربوية في بناء الفرد والأسرة.

يقدم نهج البلاغة اللِّين والطَّيب بوصفهما خُلُقَيْن صادرَيْن عن قوَّة نفسية واعية، لا عن ضعف أو تهاون، مرتبطين مباشرة بإدارة النفس والآخرين بحكمة وبصيرة، فاللِّين عند أمير المؤمنين عليه السلام ليس مجرد أدب لفظي أو تلطف خارجي، بل أسلوب إصلاحي عملي يُستعمل في موضعه لتحقيق الإصلاح، قائم على فهم دقيق لطبيعة النفس البشرية، واختلاف مراتب الناس في القبول والاستجابة، وهو أداة لضبط النفس قبل ضبط الآخرين.

الدرس السابع: رؤى الحياة في نهج البلاغة (اللين والطيب) ٦٩

وقد بيّن الإمام عليه السلام أنّ اللين والطيب ركيزتان أساسيتان في صيانة العلاقات العامة وحفظ المودة بين الناس، وليستا مجرد تزيين للقول، بل منهج عملي يوازن بين القوة والرحمة، والعدل والرفق.

ويظهر هذا المعنى جلياً في وصاياه لمالك الأشر، إذ يقول عليه السلام: «واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكونن عليهم سباً ضارياً تغتم أكلهم، فإنهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإمّا نظير لك في الخلق»^(١).

ويكشف هذا النص عن رؤية متكاملة: فحفظ الحقوق لا يتحقق بالقسوة، وصون القلوب لا يكون إلا بالرفق والحكمة، وهذا هو جوهر اللين والطيب، الذي يمكن الفرد من ضبط نفسه قبل أن يضبط الآخرين، ويجعل أثر القول أبلغ من أثر القوة، وأعمق من أثر الوعظ المجرد.

من المنظور الأخلاقي والتربوي، يمنح اللين والطيب الإنسان قدرة على تهذيب النفس، وكبح الغضب، وضبط الانفعالات؛ فالقسوة والغلظة تُضعف تأثير الكلام والحق، مهما كان الموقف صائباً، بينما اللين يُسهّل قبول الحق، ويهين النفوس لاستقبال التوجيه والعمل به، ويحوّل السلوك العملي إلى رسالة حياة يُحتذى بها قبل أي كلمة.

وفي البعد التربوي داخل الأسرة، يؤكد نهج البلاغة على أنّ القسوة تفسد القلوب قبل أن تُصلح السلوك، ويقدم الإمام عليه السلام قاعدة تربوية دقيقة حين يقول: «ولا يكن أهلك أشقى الخلق بك»^(٢).

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ٨٤.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ٥٤.

٧٠ دروس في الأخلاق

ويحمّل هذا التوجيه المربيّ مسؤولية أثر سلوكه على نفوس من تحت ولايته،
ويجعل الرفق معياراً لصحة العلاقة الأسرية وبناء شخصية متوازنة.
وعليه، فإنّ اللين والطيب في نهج البلاغة ليسا خُلُقَيْن تجميليّين، بل منهج
أخلاقي عملي وتربوي راسخ، يُراد به بناء الإنسان المتوازن، والأسرة المطمئنة،
والمجتمع الذي يقوم على الحكمة والرفق والعدل، مع صيانة الكرامة الفردية
والجماعية.

اللين قوّة إصلاح لا ضعف:

قراءة في منهج الإمام علي عليه السلام:

إنّ اللين في نهج البلاغة ليس مجرد تلطّف لفظي أو أدب خارجي، ولا
فضيلة سطحية تتوقّف على حسن القول، بل هو أسلوب إصلاحي عملي
وواعي، يركّز على فهم النفس البشرية وحركتها، ويُستعمل في مواضع الحكمة
والحقّ بما يحقق مصلحة الفرد والمجتمع، دون قسوة أو انفعال يضعف أثر
الخطاب، فاللين هنا أداة لضبط النفس، وصيانة القيم، وإصلاح العلاقات
العملية بين الناس، وهو ركيزة أساسية لتحويل المبادئ إلى واقع حياتي.
وقد عبّر الإمام علي عليه السلام عن هذا المعنى حين قال: «ليس الخير أن يكثر
مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك»^(١).

فالحلم، وهو من مظاهر اللين، أداة لضبط النفس وتنظيم السلوك، يحمي
الإنسان من الوقوع في الغلظة والانفعال، ويجعل القوة مرشدة للحقّ لا أداة

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٢١.

الدرس السابع: رؤى الحياة في نهج البلاغة (اللّين والطّيب) ٧١

للظلم، كما حذّر الإمام من تأثير الغضب والانفعال فقال: «واحذر الغضب فإنّه جند عظيم من جنود إبليس»^(١).

فَالغضب يقلب العقل ويشوّه المنطق، ويضعف أثر الحجة، مما يوضّح أنّ اللّين قوّة في الإصلاح، لا ضعفاً، ووسيلة للوصول إلى القلوب بالعقل قبل القول.

الممارسات العملية للّين في منهج الإمام علي عليه السلام:

١ - ضبط النفس قبل القول والفعل:

مراقبة الانفعال والسيطرة عليه قبل أي ردّ أو قرار، ليصبح الكلام وسيلة إصلاح لا صدام، وموقف الإنسان رحمة لا قسوة.

٢ - الرحمة العملية في العلاقات:

لين المعاملة وسيلة لحفظ حقوق الناس وصيانة كرامتهم، كما أرشد الإمام عليه السلام مالك الأشر: «واشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللفظ بهم، ولا تكوننّ عليهم سبّحاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين وإمّا نظير لك في الخلق»^(٢).

٣ - الموازنة بين الحزم والرفق:

إنّ اللّين لا يعني التساهل أو الضعف، بل هو ضبط النفس مع الثبات على الحقّ، بحيث تتحقّق العدالة من غير إفراط ولا تفريط، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «آلة الرياسة سعة الصدر»^(٣).

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ١٣١.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٣، ص ٨٤.

(٣) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٤٢.

٤ - القدوة العملية:

إِنَّ التَّصَرُّفَ الْمُنْتَزَنَ أَمَامَ الْآخَرِينَ، وَلَا سِيَّاهُ الْأَطْفَالُ وَالشَّبَابُ، يَحْوِلُ الْمَنْهَجَ الْأَخْلَاقِي إِلَى سُلُوكٍ عَمَلِيٍّ يُجْتَنَبُ بِهِ، وَيَكُونُ أَثَرُهُ أَعَمَقَ مِنْ أَيْ وَعْظٍ لَفْظِيٍّ، وَقَدْ وَرَدَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: «خَالَطُوا النَّاسَ مَخَالِطَةً إِنْ مَتَّمَّ مَعَهَا بَكُوا عَلَيْكُمْ، وَإِنْ عَشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ»^(١).

٥ - تحويل المبادئ إلى ممارسة يومية:

مراقبة النفس، ضبط الانفعال، مراعاة ظروف المواقف المختلفة، بحيث يصبح اللين أسلوب حياة عملياً ومرشداً للسلوك اليومي، يربط بين الفطرة والوعي، ويحقق الإصلاح الفردي والاجتماعي في آن واحد.

حدود اللين وضوابطه بين الحكمة والمداهنة في الواقع المعاصر:

في الواقع المعاصر، يصبح اللين والرفق وسيلة فعالة في الإصلاح والتعامل مع الآخرين، لكنه ليس مطلقاً بلا ضوابط، بل محكومٌ بالحكمة والحق، ومقيّدٌ بما يحقق أثر القول ويحفظ الحقوق، فاللين الحقيقي هو الذي يوازن بين قوة الموقف ورفق التعامل، ويحوّل الخلاف أو الصدام إلى فرصة للتقريب والتوجيه. يؤكد القرآن الكريم على هذا المعنى حين يأمر المؤمن بالتعامل بالحكمة والرفق حتى مع من يواجهه بالعداء:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٤.

الدرس السابع: رؤى الحياة في نهج البلاغة (اللّين والطّيب) ٧٣

فاللّين هنا ليس تخاذلاً أو خضوعاً للحقّ، بل هو أسلوب عملي يحوّل الصدام إلى تفاهم، ويؤسّس لعلاقات سليمة قائمة على التقدير والاحترام المتبادل، حتّى في المواقف المعقدة.

ويكشف نهج البلاغة عن هذا التوازن في أقوال الإمام علي عليه السلام، حيث يجعل اللّين وسيلة للإصلاح لا لإسقاط الحقّ، ويضع له ضوابط واضحة: ألاّ يكون سبباً للتنازل عن الواجب، وألاّ يتحوّل إلى مDAHنة أو مسامرة للهوى، فاللّين الحكيم يستثمر في من يقبل التوجيه، ويوازي الحزم مع من يتعنّت، مع مراعاة الزمان والمكان وسيلة للإصلاح، بما يحقّق أثر القول دون إضرار بالحقّ أو بالكرامة.

وبذلك، يصبح اللّين الطبيعي من أخلاق القوة والوعي، وهو أداة لضبط النفس، وصيانة القيم، وتحقيق الإصلاح العملي في العلاقات الاجتماعية والفردية، دون أن ينحرف إلى التساهل أو المDAHنة، محافظاً على التوازن بين الحقّ والرحمة، وبين القوة والحكمة.

وعلىنا كأفراد ومربّين ومجتمع أن نعي أنّ ممارسة اللّين لا تتحقّق بالتقليد الأعمى أو بالمظاهر، بل بالوعي التام بالموقف، وبمعرفة حدودنا وواجباتنا، وبالمراعاة الدقيقة لحقوق الآخرين وحاجاتهم.

فاللّين حين يُمارس بحكمة، يكون درعاً يحمي العلاقات، وسلوكاً يربّي النفوس، ووسيلة لصيانة الكرامة، ويحوّل كل تحدّ وصدام محتمل إلى فرصة للإصلاح والتوجيه، بما يرسّخ القيم الأخلاقية ويجعلها ماثلة في الواقع العملي، على الصعيدين الفردي والأسري والمجتمعي.

انعكاسات اللين والطيب على الاستقرار النفسي والاجتماعي:

بعد استعراض المحاور السابقة وفهم طبيعة اللين والطيب كما رسمها نهج البلاغة، يتضح أنّ هذين الخُلُقَيْن الأخلاقيين ينبعان من قوة النفس الواعية، ويؤثران تأثيراً مباشراً على الفرد والأسرة والمجتمع على حدّ سواء، فاللين يحمي الإنسان من الانفعال المفرط، ويقوّي ضبطه الذاتي، ويمنحه القدرة على التعامل مع الاختلافات والمواقف الصعبة بروية وحكمة.

أمّا الطيب، فيجعل علاقاته قائمة على الرحمة والمراعاة، فيثمر المودّة والثقة والتعاون بين الناس، ويخلق بيئة يسودها الاحترام والتقدير المتبادل.

ومن الناحية النفسية، يترسّخ أثر اللين والطيب في استقرار القلب وهدوء العقل، إذ يصبح الإنسان أقل عرضة للتوتر والاندفاع، وأكثر قدرة على مواجهة الضغوط والمحن بهدوء وثبات.

فاللطف المنضبط بالوعي والنية الصالحة يجنب الفرد الوقوع في الانفعالات المدمّرة، ويكسبه القدرة على التحكم في الذات قبل التحكم في الموقف أو الآخرين.

أمّا على مستوى الأسرة، فيصبح اللين والطيب وسيلة عملية لتثبيت السلام الأسري وتعزيز الروابط الداخلية، فاللطف والمراعاة في البيت لا يقتصران على كلمات لطيفة، بل يشملان الفعل والسلوك اليومي، فينشأ الأبناء متوازنين نفسياً وأخلاقياً، قادرين على التحلّي بالصبر والرحمة، ويكتسبون مهارات التعامل مع الآخرين بروح التفاهم والتعاون.

الدرس السابع: رؤى الحياة في نهج البلاغة (اللّين والطّيب) ٧٥

ومن هنا يُظهر نهج البلاغة أنّ التربية بالرفق أبلغ أثراً من التربية بالقسوة، إذ القسوة تزرع الانفعال وتضعف الاستجابة، بينما اللّين يهيئ النفوس لتقبل التوجيه والعمل به.

وعلى مستوى المجتمع، يُترجم اللّين والطّيب إلى تماسك اجتماعي واستقرار جماعي، فاللّين في التعامل مع الآخرين يفتح القلوب ويهيئ النفوس لتقبل النصيحة والتوجيه، ويخفف الاحتكاكات والصراعات المجتمعية، ويعزز السلوكيات الإيجابية المشتركة.

كما أنّ ممارسة الطّيب تُحوّل المواقف المتوترة إلى فرص للتفاهم والإصلاح، فتحقق التوازن بين الحقوق الفردية والمصلحة العامة، ويصبح المجتمع أكثر قدرة على مواجهة التحديات الأخلاقية والاجتماعية، وأكثر قدرة على الصمود أمام الأزمات.

ومن منظور عملي، فإنّ تطبيق اللّين والطّيب يومياً يتجلّى في:

١ - ضبط النفس عند مواجهة الاستفزاز أو المواقف المقلقة:

وذلك بالسيطرة على الانفعال قبل الردّ أو اتّخاذ القرار، ليكون السلوك وسيلة للإصلاح لا سبباً للصدام، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لسان العاقل وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه»^(١).

٢ - ممارسة الرحمة العملية داخل الأسرة:

مراعاة مشاعر الأبناء والزوج، والحرص على الحوار الهادئ والموجّه، مما يقوي الروابط ويزرع الأمن النفسي في البيت.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١١.

٣ - المراعاة في التعاملات العامة والمجتمعية:

اللّين يجعل الكلام مقبولاً، والحق مؤثراً، ويقلّل الاحتكاك بين الأفراد والجماعات، ويخلق بيئة يسودها الاحترام المتبادل.

٤ - تحويل المبادئ الأخلاقية إلى سلوك يومي عملي:

مراقبة النفس، ضبط الانفعال، مراعاة ظروف كل موقف، بحيث يصبح كل موقف فرصة لتطبيق الأخلاق، وتحويل النظرية إلى واقع معاش محسوس وملموس.

وبذلك، يتّضح أنّ اللّين والطّيب ليسا مجرد أدوات أخلاقية نظرية، بل هما وسيلتان عمليتان لضبط النفس، وتحقيق الاستقرار النفسي، وتعزيز التماسك الاجتماعي، فإنّ أثرهما يمتد من الفرد إلى الأسرة، ومن الأسرة إلى المجتمع، ويحوّل الخلق إلى واقع عملي يُحسّ به الجميع، ويصبح معياراً للسلوك اليومي، وقاعدة للتعامل مع المواقف المعاصرة بكلّ حكمة ورحمة.

الدرس الثامن

كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟

المقدمة:

إنَّ بناء البيئة الأخلاقية في المجتمع ليس مشروعاً نظرياً يُكتفى فيه بالشعارات، بل هو مسؤولية عملية تبدأ من الفرد وتمتد إلى الأسرة ثم إلى المجتمع بأسره، فالقرآن الكريم لم يطرح الأخلاق بوصفها مفاهيم مجردة، بل قدّمها كمنهج حياة يُمارَس في السلوك اليومي، ويُترجم في طريقة التفكير، وأسلوب التعامل، ونوعية العلاقات.

والمجتمع الإنساني لا يستقيم إلا إذا سادت فيه قيم العدل، والصدق، والعفة، والرحمة، واحترام الحقوق، وإذا غابت هذه القيم، تحوّل المجتمع إلى ساحة صراع مصالح، وضعفت الثقة بين أفراده، وانهارت الروابط الإنسانية، ومن هنا كان المنظور القرآني يركّز على صناعة الإنسان أولاً، لأنّه اللبنة الأساس في بناء أي بيئة أخلاقية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

(النحل: ٩٠)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

فالآية الأولى تؤسّس لمعيار الأخلاق العامة في المجتمع، والآية الثانية تؤكد أنّ التغيير يبدأ من الداخل، من إصلاح النفس وضبط السلوك. وسوف نذكر في هذا الدرس أموراً عملية تُعين على بناء البيئة الأخلاقية في المجتمع على ضوء التعاليم القرآنية:

- ١ - إصلاح الفرد أساس إصلاح المجتمع.
- ٢ - ترسيخ قيمة العدل والإنصاف.
- ٣ - نشر ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- ٤ - بناء العلاقات على الرحمة والتكافل.
- ٥ - دور القدوة الصالحة في صناعة البيئة الأخلاقية.

الأمر الأول: إصلاح الفرد أساس إصلاح المجتمع:

إنّ المنهج القرآني في بناء المجتمع لا يبدأ من الأنظمة ولا من الشعارات العامة، بل يبدأ من الإنسان نفسه، لأنّ المجتمع ليس كياناً مستقلاً عن أفرادِهِ، بل هو مجموع سلوكهم وتوجّهاتهم وقيمهم، فإذا صلح الفرد في باطنه وظاهره، انعكس ذلك صلاحاً في أسرته، ثم في محيطه، ثم في المجتمع بأسره.

وقد قرّر القرآن هذه الحقيقة بوضوح في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

فالآية تجعل التغيير الاجتماعي مشروطاً بالتغيير الداخلي، أي بإصلاح النفس، وتصحيح النية، وضبط السلوك، فلا يمكن لمجتمع أن يكون عادلاً

الدرس الثامن: كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟ ٧٩

وأفرادهم يظلمون، ولا أن يكون أميناً وأفرادهم يخونون، ولا أن يكون طاهراً
وأفرادهم يتساهلون في المعاصي.

كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾
(الشمس: ٩-١٠).

فالتزكية هنا ليست أمراً فردياً معزولاً، بل هي مشروع حضاري، لأنَّ
النفس المزكّاة تنتج سلوكاً مستقيماً، والسلوك المستقيم يصنع بيئة أخلاقية آمنة.
وجاء في الروايات ما يؤكّد هذا المعنى العملي، فقد روي عن أمير
المؤمنين عليه السلام: «من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره،
وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه»^(١)، فالإصلاح يبدأ من الداخل، من
تهذيب النفس، ومحاسبتها، ومراقبتها قبل الانشغال بتقويم الآخرين.

وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها
قبل أن توزنوا، وتجهّزوا للعرض الأكبر»^(٢)، وهذه الكلمة النبوية تؤسّس لمنهج
عمليّ في تهذيب النفس، قائم على المراجعة اليومية الدقيقة، لا على المعرفة النظرية
المجرّدة؛ فيقف الإنسان مع نفسه وقفة صدق، فيسألها:

هل صدق لسانى اليوم فى حديثه؟

هل صدر منى ظلم لأحدٍ قولاً أو فعلاً؟

هل التزمتُ حدود الله فى نظرى ولسانى وسلوكى؟

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام على عليه السلام: ج ٤، ص ١٦.

(٢) وفى بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٦٧، ص ٧٥.

٨٠ دروس في الأخلاق

والتطبيق العملي لهذا الأمر يكون بأن يجعل الإنسان لنفسه برنامجاً أخلاقياً يومياً، فيبدأ بضبط لسانه عن الغيبة والكذب، وضبط نظره عن الحرام، وضبط قلبه عن الحسد وسوء الظن، ويحرص على أداء الحقوق، والوفاء بالوعد، وإتقان العمل، فحين يرى الناس الصدق في كلامه، والعدل في تعامله، والرحمة في سلوكه، تنتشر هذه القيم تلقائياً في محيطه، دون حاجة إلى خطب طويلة أو شعارات معلقة.

إنَّ البيئة الأخلاقية لا تُصنع بالقوانين وحدها، بل تُصنع برجال ونساء يعيشون القيم قبل أن يطالبوا بها، فكل فرد مسؤول عن نصيبه في بناء المجتمع، وكل إصلاح صغير في النفس هو لبنة في جدار الإصلاح العام، ومن هنا كان إصلاح الفرد هو الأساس الذي يقوم عليه صلاح المجتمع كله.

الأمر الثاني: ترسيخ قيمة العدل والإنصاف:

العدل في المنظور القرآني ليس قيمةً تجميلية تُذكر في الخطب، بل هو أساس قيام المجتمع واستقراره، وبه تحفظ الحقوق، وتُصان الكرامات، وتستقيم العلاقات، وإذا كان إصلاح الفرد هو اللبنة الأولى في البناء الأخلاقي، فإنَّ العدل هو القاعدة التي ينتظم عليها سلوك الأفراد فيما بينهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠).

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

الدرس الثامن: كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟ ٨١

فالعدل هنا ليس مشروطاً بالمحبة، ولا يسقط بالخصومة، بل يبقى واجباً حتى مع من نختلف معهم أو لا نميل إليهم، وهذه قمة البناء الأخلاقي؛ أن يُنصف الإنسان غيره ولو على حساب عاطفته، وأن يقول الحق ولو على نفسه. وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «العدل أساس به قوام العالم»، وفي كلمة أخرى: «العدل أقوى أساس»، وقال عليه السلام: «إنَّ العدل ميزان الله سبحانه الذي وضعه في الخلق، ونصبه لإقامة الحق، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه»^(١).

فهذه الكلمات تكشف أنَّ العدل ليس خُلُقاً فردياً محدود الأثر، بل هو نظام إلهي به تنتظم الحياة، وميزان رباني تُوزن به العلاقات والحقوق والمواقف، فإذا اختل هذا الميزان اضطربت الموازين كلها، وسرى الظلم في مفاصل المجتمع، أمّا إذا استقام، استقامت معه شؤون الناس، وثبت بنيانهم، وقويت روابطهم، فالعدل إذن عنصر بقاء المجتمع، وشرط استقراره، وأساس قوّته ودوامه.

والتطبيق العملي للعدل يبدأ من التفاصيل الصغيرة في الحياة اليومية؛ بأن لا يظلم الإنسان أحداً في كلمة، ولا يبخس حقاً في معاملة، ولا يميل في حكم بدافع قرابة أو صداقة وفي الأسرة يكون العدل في معاملة الأبناء، وفي العمل يكون في أداء الأمانة دون تقصير، وفي الدراسة يكون في احترام حقوق زملاء، وفي الخصومة يكون في الاعتراف بالخطأ عند الوقوع فيه.

أمّا الإنصاف فهو أن تعطي غيرك حقه كاملاً، ولو كان ذلك على خلاف مصلحتك الآنية، وأن تسمع للطرف الآخر قبل أن تحكم عليه، وأن تزن الأمور

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٣، ص ٤٨.

بميزان الشرع لا بميزان الهوى، فإذا ساد هذا الخلق بين أفراد المجتمع، زالت أسباب كثير من النزاعات، وضعفت مشاعر الحقد والحسد، وحل محلها الاحترام المتبادل والثقة.

إنَّ البيئة الأخلاقية لا تُبنى بالعاطفة وحدها، بل تُبنى بميزانٍ دقيقٍ من العدل والإنصاف في القول والفعل، فكل موقف يُمارَس فيه العدل هو لبنة جديدة في صرح المجتمع الصالح، وكل تنازل عن الهوى في سبيل الحق هو خطوة عملية نحو بيئة قرآنية متوازنة.

الأمر الثالث: نشر ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إنَّ المجتمع الأخلاقي في المنظور القرآني لا يقوم على صلاح الأفراد فحسب، ولا على وجود العدل في القوانين وحدها، بل يحتاج إلى روح رقابية واعية تحفظ القيم من الذبول، وتمنع الانحراف من التمدد، وهذه الروح تتمثل في ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي ليست تدخلاً في خصوصيات الناس، ولا أسلوب تشهير أو تسلط، بل هي مسؤولية شرعية تحفظ هوية المجتمع وتمنع سقوطه التدريجي في الفساد.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

فالآيتان تجعلان هذه الفريضة معياراً لفلاح الأمة وخيريتها؛ إذ إنَّ تركها يفضي إلى اعتياد المنكر حتَّى يألفه الناس، وانزواء المعروف حتَّى يُستغرب فعله.

الدرس الثامن: كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟ ٨٣

ومن ذلك ما ورد عن رسول الله ﷺ: «لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهينَّ عن المنكر، أو ليسلطنَّ الله شراركم على خياركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم»^(١)، وهذا الحديث يكشف أن ترك هذه الفريضة لا يؤثر في الأفراد فقط، بل ينعكس على مصير المجتمع بأسره، فتختل موازينه، ويضعف أثر الصالحين فيه. غير أنَّ المنهج القرآني والروائي في أداء هذه الفريضة قائم على الحكمة والرفق، بعيداً عن العنف والتشهير، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).

فالتطبيق العملي يقتضي أن يبدأ الإنسان بإصلاح نفسه ليكون قدوة صامته قبل أن يكون واعظاً ناطقاً، ثم ينصح بلطف، ويختار الوقت المناسب، والعبارة الرصينة، بعيداً عن الإهانة أو الاستعلاء، فإن رأى منكراً لم يتعجل الفضيحة، بل قصد الإصلاح، وإن رأى معروفاً شجّع عليه وأثنى على فاعله، ليُشيع في المجتمع شعوراً بأنَّ الخير محلُّ تقدير، وأنَّ الخطأ يُعالج بالحكمة لا يُستمر للإسقاط.

إنَّ نشر هذه الثقافة يرسِّخ روح التعاون على الطاعة، ويُنشئ مجتمعاً متواصياً بالحقِّ، يتناصح أفرادُه في الخفاء قبل العلن، فتضعف الجرأة على المعصية، ويقوى الحياء من الله تعالى ومن الناس، وبهذا يتحوَّل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبٍ فرديٍّ محدود إلى منهجٍ حضاريٍّ يحفظ البيئة الأخلاقية ويمنحها القدرة على الاستمرار والثبات.

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٩٠، ص ٣٨٠.

الأمر الرابع: بناء العلاقات على الرحمة والتكافل:

إنَّ البيئة الأخلاقية في المنظور القرآني لا تكتمل بإقامة العدل وحده، بل تحتاج إلى روح تتجاوز حدود الإنصاف إلى فضاء الرحمة، لأنَّ العدل يضع الأمور في مواضعها، أمَّا الرحمة فتهدب العلاقات دفعها الإنساني، وتجعل المجتمع متماسكاً لا متنازعا، ومن هنا كان القرآن يؤسِّس العلاقات الاجتماعية على مبدأ الرحمة والتكافل، لا على المصلحة المجردة أو المنفعة العابرة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)، فجعل رابطة الإيمان رابطة أخوة، بما تحمله من معنى القرب، والنصرة، والمواساة.

وقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

فالتعاون ليس خياراً ثانوياً، بل أصل في بناء المجتمع الصالح، إذ به تُسدِّ الحاجات، وتُرفع المعاناة، ويشعر كل فرد أنَّه جزء من كيانٍ حيٍّ يتألم لألمه ويفرح لفرحه.

وقد ورد عن رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١)، وهذه الصورة النبوية تجسّد المعنى العملي للرحمة؛ فهي ليست إحساساً عابراً، بل مشاركة وجدانية حقيقية تُحمّل الإنسان مسؤولية التفاعل مع آلام الآخرين وحاجاتهم، حتّى يصبح ألم غيره جزءاً من اهتمامه وسعيه.

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٤، ص ٨٥.

الدرس الثامن: كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟ ٨٥

والتطبيق السلوكي لهذا المبدأ يبدأ من التفاصيل اليومية الدقيقة؛ بأن يُحسن الإنسان الظنَّ، ويعفو عند المقدرة، ويُعين المحتاج بما يستطيع، ويزور المريض، ويواسي المصاب، ويتلطّف في خطابه، ويتعد عن القسوة في أحكامه، وفي نطاق الأسرة يتجلّى التكافل برعاية الضعيف، والإنصاف بين الأبناء، وتحمل المسؤولية بروح المودّة، أمّا في المجتمع فيظهر من خلال المشاركة في الأعمال الخيرية، ودعم المبادرات النافعة، والسعي في إصلاح ذات البين.

فإذا سادت الرحمة بين الناس خفّت حدّة النزاعات، وضعفت نزعة الأنانية، وشعر الفرد بالأمن الاجتماعي، لأنّه يدرك أنّه جزء من كيانٍ متضامن لا يتركه عند الشدائد، وهكذا تتحوّل العلاقات من ارتباطات شكلية إلى شبكة متماسكة من التعاطف والمسؤولية المشتركة.

إنّ المجتمع الذي تُبنى علاقاته على الرحمة والتكافل مجتمعٌ حيٌّ قادرٌ على تجاوز الأزمات، ثابتٌ أمام التحديات، لأنّ أفرادَه لا يعيشون لأنفسهم فحسب، بل يحمل بعضهم همّ بعض، فيتحقّق بذلك البعد الإنساني الذي جعله القرآن أساساً في بناء البيئة الأخلاقية المتوازنة.

الأمر الخامس: دور القدوة الصالحة في صناعة البيئة الأخلاقية:

إنّ القيم الأخلاقية لا تنتقل إلى المجتمع بمجرد الوعظ والتوجيه، بل تنتقل حين تتجسّد في سلوكٍ يُرى ويُعاش، فالإنسان بطبيعته يتأثر بالفعل أكثر من القول، ويتعلّم بالمشاهدة أعمق مما يتعلّم بالسماع، ومن هنا كان للقدوة الصالحة أثرٌ حاسمٌ في صناعة البيئة الأخلاقية، لأنّها تمثّل النموذج العملي الذي تُقاس عليه الأفعال، وتُستحضر به المعايير.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١).

فجعل شخص النبي ﷺ أسوة عملية، لا مجرد مبلغ للأحكام، بل مجسداً لها في سلوكه اليومي، في رحمته، وعدله، وصدقه، وحلمه.

كما قال تعالى: ﴿اتَّامُرُونَ النَّاسَ بِالْإِثْرِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: ٤٤)، وهي آية تحذّر من الانفصال بين القول والعمل، لأنّ هذا الانفصال يهدم الثقة، ويضعف أثر القيم في المجتمع.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية»^(١)، أي ليكن سلوككم هو الدعوة، وأخلاقكم هي البرهان، فإنّ الناس أسرع استجابة لمن يرون صدق فعله، من استجابتهم لمن يسمعون خطابه.

والتطبيق السلوكي لهذا الأمر يبدأ من إدراك كل فرد أنّه موضع نظر وتأثير، في أسرته، أو مدرسته، أو عمله، فالأب قدوة لأبنائه، والأم قدوة لبناتها، والمعلّم قدوة لطلّابه، والعالم قدوة لمجتمعه، فإذا التزم الصدق في كلامه، والأمانة في عمله، والتواضع في تعامله، ترسّخت هذه القيم في نفوس من حوله من غير إكراه ولا إلزام.

أمّا إذا خالف القول الفعل، ضعفت الثقة، وسقطت هيبة القيم، وأصبح الانحراف مبرّراً بحجة أنّ من يدعو إلى الخير لا يلتزم به، ومن هنا كانت

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٧٨.

الدرس الثامن: كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟ ٨٧
مسؤولية القدوة عظيمة؛ لأنَّ صلاحها ينعكس صلاحاً عاماً، وفسادها يفتح
باب التبرير للآخرين.

إنَّ البيئة الأخلاقية تُصنع حين يرى الناس نموذجاً حياً للعدل، والرحمة،
والاستقامة، فيطمئنون إلى إمكان تطبيق هذه القيم في واقع الحياة، فكلُّ إنسان
قادرٌ أن يكون قدوة في نطاقه، وكل سلوك مستقيم هو رسالة صامتة تُسهم في
بناء مجتمعٍ قرآنيٍّ متماسكٍ في أخلاقه وقيمه.

الخلاصة:

يَتَّضح مما تقدّم أنَّ صناعة بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني ليست مشروعاً
نظرياً يُرفع في الشعارات، بل هي مسارٌ عمليٌّ يبدأ من إصلاح الفرد، ويتسرَّخ
بإقامة العدل، ويتحصَّن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتغذَّى بروح
الرحمة والتكافل، ويثبت بوجود القدوة الصالحة، فهذه الأمور إذا اجتمعت
تكوِّن شبكةً متكاملةً تحفظ المجتمع من الانهيار القيمي، وتمنحه القدرة على
الاستمرار بثبات واتزان.

والمسؤولية في ذلك لا تقع على فئةٍ دون أخرى، بل هي تكليفٌ عام؛ كلُّ
فردٍ مطالبٌ أن يسهم في بناء هذا المحيط الأخلاقي من موقعه، بكلمته، وموقفه،
وسلوكه اليومي، فالكلمة الصادقة، والموقف العادل، والمبادرة الرحيمة،
والنصيحة الحكيمة، والقدوة المستقيمة، كلّها لبناتٌ حقيقية في صرح المجتمع
الصالح.

فإذا وعى الإنسان هذا الدور، وتعامل مع نفسه بوصفه عنصراً فاعلاً في
محيطه، تحوّل الإصلاح من أمنية عامة إلى ممارسة يومية، ومن خطابٍ أخلاقي إلى

٨٨ دروس في الأخلاق

واقعٍ معاشٍ، وبذلك تتحقّق الغاية القرآنية في إقامة مجتمعٍ يقوم على التقوى، وتنظم فيه العلاقات على أساس الكرامة والعدل والرحمة، فيكون بيئةً صالحةً للإنسان في دنياه، ومهيئةً له للفلاح في آخرته.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لتحويل هذه المبادئ إلى سلوكٍ ثابت، وأن يجعلنا من الساعين في إصلاح أنفسهم ومجتمعاتهم، إنّه وليّ التوفيق.

* * *

الدرس التاسع

كيف نخطُّ للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟

لا ينظر المنهج الإسلامي إلى المستقبل بوصفه زمناً غامضاً تُفَوَّضُ شؤونه للقلق أو تُعَلَّقُ على مجرد التمني، ولا يتعامل معه على أنه قدرٌ محتومٌ خارج دائرة الاختيار والمسؤولية، بل يربطه ربطاً وثيقاً بالحاضر، ويجعله نتيجةً طبيعية لما يختاره الإنسان اليوم من فكرٍ وسلوكٍ واتِّجاه.

فالمستقبل، في الرؤية القرآنية والمنهج العلوي، ليس مفاجأةً طارئة، بل حصيلة مسارٍ يُصاغ بالوعي والقرار والعمل.

وانطلاقاً من هذا الفهم، يبرز سؤال التخطيط للمستقبل بوصفه ضرورةً فكريةً وتربويةً وأخلاقية، تمسّ الفرد والمجتمع معاً، ولا سيّما في ظلّ التحوّلات المتسارعة والتحدّيات المتنوّعة التي باتت تهدّد القيم وتربك الهويّات، وتفرض على الإنسان المؤمن أن يكون أكثر وعياً ببصيرته، وأدقّ نظراً في مآلات أفعاله وخياراته.

ومن هنا، يُعدّ التخطيط للمستقبل فعلاً إيمانياً واعياً، لا مجرد إجراءٍ دنيويٍّ منفصل عن البُعد الشرعي، إذ ينبع من استشعار المسؤولية أمام الله تعالى، واستحضار العواقب، ورفض ترك النفس رهينة الارتجال وردود الأفعال، وقد

٩٠ دروس في الأخلاق

وَجَّهَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْوَعْيَ تَوْجِيهاً صَرِيحاً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: ١٨)، فجعل (الغد) موضعَ نظرٍ ومحاسبةٍ وتدبُّرٍ، لا مساحةَ إهمالٍ أو انتظار.

وعلى هذا الأساس، يقوم هذا الدرس على بناء رؤية سلوكية عملية، تنطلق من الداخل قبل الخارج، وتستند إلى منهجٍ متكامل يجمع بين البصيرة الإيمانية وحُسن التدبير؛ فيقرأ المستقبل من خلال السُنن الإلهية الحاكمة للتاريخ والمجتمعات، لا عبر الظنون والتقديرَات الانفعالية، ويؤسِّس لمبدأ الوقاية قبل وقوع الخطر، بدل الاكتفاء بردود الأفعال بعد تحقُّقه.

كما يركِّز على ترسيخ الثبات القيمي في زمن التحوُّلات، بما يحفظ الهوية الإيمانية ويمنح القدرة على الاستمرار، ويتعامل مع الأزمات بوصفها محطات مراجعة وإصلاح، لا حالات شللٍ وانكسار، فيحوِّلها إلى فرصٍ واعية لتصحيح المسار والنهوض.

ويهدف، في محصَّلاته، إلى تربية الإنسان على تحمُّل المسؤولية الشرعية والإنسانية، وتعزيز روح المبادرة الواعية، بدل ثقافة الهروب أو الاستسلام أمام التحديات المستقبلية.

المنهجية العامة:

يقوم هذا الدرس على بناء رؤية سلوكية عملية، تنطلق من الداخل قبل الخارج، وتعتمد:

١ - قراءة المستقبل من خلال السُنن الإلهية لا من خلال الظنون.

الدرس التاسع: كيف نخطط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟..... ٩١

٢ - بناء الوقاية قبل وقوع الخطر.

٣ - ترسيخ الثبات القيمي في زمن التحولات.

٤ - تحويل الأزمات من حالات شلل إلى فرص مراجعة وإصلاح.

٥ - تربية الإنسان على المسؤولية لا على الهروب.

قراءة المستقبل من خلال السنن الإلهية لا من خلال الظنون:

لا يُراد من الإيمان بالسنن الإلهية أن يبقى في دائرة التصوّر الذهني أو المعرفة النظرية، بل المقصود أن يتحوّل إلى وعيٍ سلوكيٍّ يضبط حركة الإنسان، ويؤجّه قراراته، ويمنحه قدرةً رشيدة على استشراف المآلات، فقراءة المستقبل على أساس السنن لا تبدأ من التكهنّ بالغد، بل من مراجعة الحاضر، لأنّ السنن الإلهية إنّما تُثمر آثارها من خلال الأفعال القائمة، لا من خلال الأمنيات.

وعلى المستوى العملي، يفرض هذا المنهج على الإنسان أن يجعل سلوكه معياراً لتوقعاته؛ فمن رام مستقبلاً مطمئناً، لزمه أن يُقوّم التزامه بالعدل، وصدق موافقه، واستقامته في أداء التكليف، إذ إنّ السنن الإلهية ربطت بين هذه القيم ونتائجها الواقعية ربط العلة بالمعلول.

ومن هنا، لا يكون القلق من المستقبل إلّا ثمرة خللٍ في الحاضر، كما أنّ الطمأنينة الصادقة لا تنشأ إلّا من انسجام السلوك مع مقتضيات الحق.

كما يقتضي هذا الفهم اعتماد السلوك الوقائي قبل وقوع الخطر، وذلك بترك التعويل على الظنون والانفعالات، والانتقال إلى قراءة المؤشرات الأخلاقية والسلوكية في الواقع؛ فالمؤمن لا ينتظر استفحال الفساد ليُصلح، ولا تفاقم الانحراف ليُعالج، لأنّ السنن الإلهية تعمل بمنطق التدرّج والإنذار، لا بمنطق المفاجأة والصدفة.

ومن آثار هذا المنهج أيضاً ترسيخ حالة الثبات والائتزان في الموقف العملي؛ فلا يُفْتَن الإنسان بظواهر القوّة المنفصلة عن العدل، ولا ينهزم نفسياً أمام تأخر النتائج مع سلامة المسار، لأنّ الميزان في قراءة المستقبل ليس لحظةً آنية، بل مساراً تراكميّ محكومٌ بالسنن، وهذا الوعي ينعكس سلوكاً في الصبر الواعي، والاستمرار في أداء الواجب، وعدم التراجع أمام الضغوط.

وبذلك، تتحوّل قراءة المستقبل من حالة انتظارٍ قلقٍ إلى منهجٍ عمليٍّ يوميٍّ، يُبنى على إصلاح النفس، وضبط السلوك، وترجمة القيم إلى ممارسةٍ حيةٍ؛ إذ من وعى السنن الإلهية أدرك أنّ الغد لا يُصاغ بالظنون، ولا يُنال بالتمني، وإنّما يُبنى بالفعل المسؤول في الحاضر.

بناء الوقاية قبل وقوع الخطر:

إنّ الاستعداد للخطر قبل وقوعه من مقوّمات الفقه العملي الإسلامي، ومن أركان الوعي السلوكي الراشد، فالوقاية ليست رفاهيةً أو إجراءً شكلياً، بل صيانةً للنفس والمجتمع من آثار الاضطراب والضرر، ومؤشّرٌ على إدراك الإنسان لمسؤوليته أمام الله تعالى ولحتمية المحاسبة على أفعاله وقراراته، قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وهذا الأمر الإلهي يؤكّد أنّ الوقاية الحقيقية لا تكون بالارتجال بعد وقوع الخطر، بل بالتحضير المبكّر، وتحصين النفس والقدرات والوسائل المتاحة لمواجهة أي طارئ.

الدرس التاسع: كيف نخطط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟..... ٩٣

وروي عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «إنَّما بدء وقوع الفتن من أهواء تُتَّبَع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها حكم الله، يتولَّى فيها رجال رجالاً، ألا إنَّ الحق لو خلص لم يكن اختلاف، ولو أنَّ الباطل خلص لم يخف عليّ ذي حجى، لكنَّه يؤخذ من هذا ضعف ومن هذا ضعف فيمزجان فيجللان معاً، فهناك يستولي الشيطان عليّ أوليائه، ونجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى، إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير»^(١).

فتشير هذه الرواية إلى أنَّ الفتنة لا تأتي فجأة، بل تبدأ من مقدّمات يمكن استشرافها، ومن ثمَّ استباقها بالوقاية، فالحرص على الصيانة قبل وقوع الخطر هو نصف الطريق إلى الأمان والاستقرار، وهو واجب شرعي وأخلاقي قبل أن يكون تدبيراً دنيوياً.

وعلى المستوى العملي، يقتضي هذا المنهج:

١ - رصد المؤشّرات المبكرة للخطر سواء كانت أخلاقية، اجتماعية، أو أمنية، وتحليلها بوعي وبصيرة.

٢ - إعداد النفس بالثبات على القيم والفضائل، وغرس الالتزام بالحق والعدل، وتقوية الإرادة، لتكون القرارات والتصرّفات مدروسة وحكيمة، لا انفعالية.

٣ - التخطيط الوقائي قبل وقوع الحدث، بما يشمل ترتيب الأولويات، وضبط الموارد، وتنظيم الوقت، لضمان سرعة الاستجابة وفعاليتها عند الحاجة.

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٣، ص ٥٧٣.

٤ - تفعيل العمل الجماعي الواعي، بحيث يُصبح الاستعداد مسؤولية مشتركة، تعزز الحصانة الفردية والاجتماعية معاً، ويُقوّي الانسجام بين الأفراد والمجتمع أمام أي تهديد.

وبذلك، تتحوّل الوقاية من مفهوم نظري إلى ممارسة عملية حية، ترافق كل قرار، وتؤطر كل خطوة، فتضمن أن يكون الإنسان قادراً على مواجهة المخاطر بحكمة ووعي، لا بردود فعل ارتجالية، بل بإرادة واعية واستعداد مسبق، معزّزاً بالسُنن الإلهية وفهم سُنن الله في الكون والمجتمعات.

ترسيخ الثبات القيمي في زمن التحوّلات:

يُعدّ الثبات القيمي الركن الأساس في مواجهة التحوّلات المتسارعة، وهو الامتداد العملي لقراءة المستقبل وفق السنن الإلهية، وبناء الوقاية قبل وقوع الخطر.

فالتغيّرات الاجتماعية والفكرية لا تُشكّل خطراً بذاتها، بقدر ما يكمن الخطر في اهتزاز المعايير، واضطراب ميزان الحقّ والباطل، وتحويل القيم من ثوابت حاکمة إلى خيارات خاضعة للضغط والظرف.

ومن هنا، يركّز المنهج الإسلامي على أنّ الثبات لا يعني الجمود أو الانعزال عن الواقع، بل يعني الالتزام الواعي بالمبدأ الإلهي في خضمّ التغيّر، بحيث تبقى القيم مرجعية ضابطة للسلوك، لا عناوين قابلة للتبديل والتأويل.

وقد أرشد أمير المؤمنين عليه السلام إلى القاعدة المنهجية الحاكمة لهذا الثبات بقوله: «لا يعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله»^(١)، وهي قاعدة تنقل

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٤٠، ص ١٢٨.

الدرس التاسع: كيف نخطط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟..... ٩٥

الإنسان من الارتهان للأشخاص والاتجاهات إلى الارتباط بالحق ذاته، فيحفظ بذلك توازنه في زمن اختلاط العناوين، ويمنع انحرافه مع تغير الوجوه والشعارات.

غير أن الثبات القيمي يتعرّض لأشدّ التحديات في زمن الفتن، حين يُلبس الباطل لباس الحق، وتُبرّر الانحرافات تحت عناوين الإصلاح أو المصلحة، فيضطرب ميزان التمييز، وتختلط المعايير، ويغدو الانحراف مقبولاً باسم الواقعية.

وفي هذا السياق، يحدّد أمير المؤمنين عليه السلام الجذر الحقيقي لانحيار القيم، في توصيف عميق لبنية الفتنة ومسارها، إذ يقول: «إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولّى عليها رجال رجلاً على غير دين الله، فلو أن الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لبس الباطل لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث ومن هذا ضغث فيمزجان، فهناك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى»^(١).

تكشف هذه الرواية أن الفتنة لا تبدأ حدثاً خارجياً مفاجئاً، بل مساراً داخلياً تدريجياً، ينشأ من تقديم الهوى على المبدأ، واستبدال المرجعية الإلهية بالأذواق والاجتهادات المنفصلة عن الكتاب والسنة، حتّى يصبح الباطل مقبولاً لذاته، بل لامتزاجه بالحق، ويغدو الانحراف ملتبساً لا فاضحاً.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ١، ص ٩٩.

ومن هنا، يقتضي ترسيخ الثبات القيمي تربية النفس على محاسبة المواقف قبل اتّخاذها، وربط السلوك اليومي بميزان الحق لا بميزان الواقع الضاغط، وتحصين الوعي من الانجرار خلف الخطاب السائد مهما بدا مبرراً أو جذاباً، كما يتطلّب بناء بصيرة أخلاقية واعية، قادرة على التمييز في زمن الاشتباه، بحيث لا تتحوّل المرونة إلى تنازل، ولا الواقعية إلى تميع للمبدأ.

ولا يقتصر الثبات القيمي على البعد الفردي، بل يتكامل مع الوعي الجماعي، من خلال ترسيخ القيم في التربية، والخطاب العام، والعلاقات الاجتماعية، بما يمنع تطبيع الانحراف، ويحفظ للمعايير الشرعية حضورها العملي، وبهذا، يتحوّل الثبات القيمي من موقفٍ دفاعيٍّ مؤقتٍ إلى منهجٍ سلوكيٍّ دائمٍ، يضمن للإنسان الاستقامة في زمن التحوّلات، ويجعل مواجهة المستقبل فعلاً واعياً قائماً على البصيرة والمسؤولية.

تحويل الأزمات من حالات شلل إلى فرص مراجعة وإصلاح:

إذا كانت قراءة المستقبل وفق السنن الإلهية تمنح الإنسان بصيرة، وبناء الوقاية يقيه من المفاجآت، وترسيخ الثبات القيمي يحفظ له بوصلته في زمن التحوّلات، فإنّ الأزمات نفسها تُشكّل فرصة ذهبية لتطبيق هذه المبادئ عملياً، وتحويل المحن إلى محطات إصلاح وتصويب.

فالأزمة ليست مجرد حدث سلبي يُرهب الإنسان أو يربكه، بل لحظة كشف للنقاط الضعيفة في الفرد والمجتمع، وفرصة لإعادة ترتيب المسار قبل تفاقم الخلل.

الدرس التاسع: كيف نخطط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟.....٩٧

فالمنهج الإسلامي يربط بين الأزمة والنجاة العملية، فلا يراها سبباً للارتباك أو الجمود، بل اختباراً لتطبيق ما تعلّمناه من قراءة السنن وبناء الوقاية وترسيخ الثبات القيمي، ومن يواجه الأزمة بحكمة يتحوّل الخطر إلى أداة تقويم، والفوضى إلى فرصة لإعادة البناء، والانكسار إلى نقطة انطلاق نحو الفهم الأعمق والمسؤولية الأكبر.

ولتحويل الأزمة إلى فرصة عملية، يقتضي ما يلي:

١ - التقييم الفوري والموضوعي: تحليل عناصر الأزمة وتحديد مخاطرها الحقيقية دون تهويل أو تهوين.

٢ - مراجعة المسار: تدقيق السياسات الفردية والجماعية، وتصحيح ما انحرف عن القيم والمبادئ.

٣ - استخلاص الدروس: تحويل كل تجربة قاسية إلى معرفة تُعزّز الوقاية المستقبلية وتقوّي الثبات القيمي.

٤ - الوعي الجماعي: نشر الدروس المستفادة وتعليمها في المجتمع لضمان تكامل الحصانة الفردية والجماعية.

وبذلك تتحوّل الأزمة من مصدر خوف وارتباك إلى منهج عملي متكامل، يربط بين البصيرة في قراءة السنن، والوقاية المبكرة، والثبات القيمي، فيصبح كل اختبار فرصة لنمو الإنسان وإصلاح المجتمع، ويجعل مواجهة المستقبل فعلاً واعياً ومسؤولاً، لا ردّة فعل ارتجالية.

تربية الإنسان على المسؤولية لا على الهروب:

المسؤولية هي أساس المنهج الإسلامي في حياة الإنسان، فهي الرابط بين الوعي والفعل، وبين الفكر والسلوك، وبدونها يظل الإنسان معرضاً للانحراف

والارتباك، فالهروب من مواجهة النتائج أو التملُّص من الواجبات لا يقتصر ضرره على الفرد، بل يمتد ليؤثر على المجتمع بأسره، ويضعف القدرة على قراءة المستقبل وبناء الوقاية وترسيخ الثبات القيمي وتحويل الأزمات إلى فرص إصلاح.

يؤكد القرآن الكريم على هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

مبيناً أن المسؤولية ليست شعوراً داخلياً فحسب، بل موقف عملي يُقاس به كل تصرف، ويحاسب الإنسان على أفعاله وقراراته أمام الله تعالى، ومن جهة أخرى، تأتي الروايات عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام لتوضح هذا المعنى من جانب السلوك العملي، فقد ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ - لَأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ - وَلَكِنْ مَنْ اسْتَعَاذَ فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ - فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]»^(١).

وتُظهر هذه الرواية أن الهروب من مواجهة الواقع أو التخاذل عن أداء الواجبات ليس طريق النجاة، بل قد يؤدي إلى ضعف الفرد وفقدان الالتزام، بينما التحمل الواعي والمسؤولية الصادقة يرسخان البصيرة، ويقوّيان المنهج السلوكي، ويجعلان الفرد قادراً على مواجهة التحديات بثبات واتزان، لا ردة فعل ارتجالية أو استسلام للظروف.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٢٠.

الدرس التاسع: كيف نخطّط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟..... ٩٩

ومن الناحية العملية، تتجلى تربية الإنسان على المسؤولية في ارتباط دائم بالمحاسبة الذاتية، بحيث يعتاد الفرد مراجعة أفعاله يومياً وفق معيار الحق، ويتعد عن تحميل الآخرين نتائج أخطائه، فلا يبرّر التقصير بالظروف أو بالآخرين، بل يمسك النفس بمحاسبة عادلة وصادقة.

وتتطلب المسؤولية أيضاً المبادرة الفاعلة، بحيث يصبح القيام بالواجبات فعلاً ذاتياً قبل أن تُفرض الظروف، دون انتظار أو تراخٍ، فتمنح المبادرة الإنسان قدرة على ضبط المسار قبل وقوع الانحرافات.

كما تشمل مواجهة المخاطر مباشرة، وعدم التراجع أو التهرب، مع التوكل على الله تعالى، لتحوّل الفعل من استجابة ارتجالية إلى موقف واعٍ وحازم، يثبت الإنسان على الصواب ويحميه من الانجرار خلف المواقف السلبية.

ولا تكتمل التربية على المسؤولية دون ربط الحصانة الفردية بمصلحة الجماعة، فيصبح العمل القيمي جزءاً من واجب متكامل تجاه الآخرين، يعزّز تماسك المجتمع ويجعل الالتزام بالقيم فعلاً مؤثراً على المحيط لا محدوداً بالنفس وحدها.

وبذلك تتحوّل التربية على المسؤولية من مجرد شعور داخلي إلى منهج عملي سلوكي متكامل، يضمن للإنسان الاستقامة في قراراته، ويجعل مواجهته للمستقبل فعلاً واعياً ومسؤولاً، لا ردّة فعل ارتجالية، بل تطبيقاً حياً للحق والقيم في كل لحظة من حياته.

الخلاصة:

التخطيط للمستقبل ومواجهة الأخطار يحتاج وعياً عملياً يربط بين البصيرة الإيمانية والعمل اليومي، بحيث يتحوّل كلّ قرار إلى ممارسة مسؤولة، قراءة السُنن الإلهية واستشراف المؤشّرات المبكرة، مع ترسيخ الثبات القيمي، يحمي الإنسان من الانحراف في زمن الفتن، ويحوّل الأزمات إلى فرص مراجعة وإصلاح، بينما المسؤولية العملية تزرع المبادرة والمواجهة الواعية، فتضمن الاستقامة والحكمة في مواجهة تحديات المستقبل.

مقوّمات العمل الواعي:

- ١ - الوعي بالسُنن الإلهية: فهم مسار الأحداث وفق سُنن الله لتوجيه السلوك واتخاذ القرار بحكمة.
- ٢ - الوقاية المبكرة: الاستعداد للخطر قبل وقوعه لحماية النفس والمجتمع، وتجنّب ردود الفعل الارتجالية.
- ٣ - ترسيخ الثبات القيمي: الحفاظ على القيم الإيمانية والأخلاقية كأساس للتمييز بين الحقّ والباطل.
- ٤ - تحويل الأزمات إلى فرص: استثمار كل تجربة صعبة لتصحيح المسار وتقوية الفرد والمجتمع.
- ٥ - تحمّل المسؤولية: المبادرة بالواجب، مواجهة المخاطر، وربط الحصانة الفردية بالمصلحة الجماعية.

الدرس التاسع: كيف نخطط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟..... ١٠١

٦ - التكامل العملي: الجمع بين هذه المبادئ يضمن مواجهة المستقبل بثبات وبصيرة، وتحويل المخاطر إلى فرص، وتحقيق الخير للفرد والمجتمع، مع جعل كل فعل يومي مسؤولاً وواعٍ.

* * *

الدرس العاشر

الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية

منظور قرآني تربوي

تقوم العلاقات الاجتماعية، في جوهرها، على الألفة والتآلف بين القلوب، فإذا ضعف هذا الرابط اختلَّت المودَّة، وتفاقمت النزاعات، واهتزَّ تماسك الأسرة والمجتمع، ومن هنا، أولى المنهج القرآني اهتماماً بالغاً ببناء الألفة بين الناس، وعدّها مظهراً عملياً للإيمان وصلاح السلوك، لا مجرد قيمة شعورية أو علاقة شكلية.

فالألفة في الرؤية القرآنية ليست حالة عاطفية عابرة، بل سلوكٌ تربويٌّ واعٍ، يهدِّب النفس، ويضبط الأنا، ويؤسِّس لعلاقات متوازنة قائمة على المسؤولية والاحترام المتبادل.

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣)، مبيّناً أنَّ وحدة القلوب نعمة إلهية وثمره تربية وتقوى، وركنٌ أساس في استقرار المجتمع وتماسكه.

وانطلاقاً من هذا الفهم، يتناول هذا الدرس الألفة والتآلف بوصفهما مشروعاً تربوياً عملياً لبناء الفرد والأسرة والمجتمع في ضوء المنهج القرآني وتعاليم أهل البيت عليه السلام.

محاوِر الدرس:

يرتكز هذا الدرس على خمسة محاور مترابطة، تُشكّل بمجموعها رؤية قرآنية تربوية عملية لبناء العلاقات الاجتماعية السليمة:

- ١ - علاقة التوحيد بوحدة القلوب وتآلف المجتمع.
- ٢ - أثر تزكية النفس في ترسيخ روح الألفة.
- ٣ - الألفة داخل الأسرة كنواة للمجتمع.
- ٤ - الأنانية وحب الذات كعائق أمام التآلف.
- ٥ - معالجة أسباب النزاع والاختلاف في منظور أهل البيت عليهم السلام.

علاقة التوحيد بوحدة القلوب وتآلف المجتمع:

يُعَدُّ التوحيد الأساس الجوهري لوحدة القلوب وتماسك المجتمع، لأنه يوحد الغاية، ويصحح الدوافع، ويحرّر الإنسان من هيمنة الأنا وحبّ التفوق، فحين يكون الله تعالى هو المرجع الأعلى في التفكير والسلوك، تخضع العلاقات الاجتماعية لمعيار الحق والعدل، لا لموازن القوة والمصلحة.

قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٣).

وتكشف الآية أنّ الألفة الحقيقية ليست نتاج إجراءات ظاهرية أو مصالح عارضة، بل ثمرة إيمانٍ راسخ يُعيد تشكيل السلوك من الداخل، ويضبط حركة الإنسان في تعامله مع الآخرين.

الدرس العاشر: الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية منظور قرآني تربوي ١٠٥

فالإيمان بالتوحيد ينعكس في تقديم رضا الله على الانفعالات، وفي كَفِّ الظلم عند الغضب، وضبط اللسان عند الخلاف، واختيار العفو عند القدرة، وبذلك تُصان الثقة، وتُغلق منافذ الضغينة، ويُحفظ تماسك المجتمع.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من نصَّب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه»^(١)، إشارةً إلى أنَّ إصلاح العلاقة مع الله هو المدخل الأصيل لإصلاح العلاقة مع الناس، ومنه تنشأ الألفة الصادقة، لا المصطنعة.

وعليه، فإنَّ ترسيخ التوحيد في السلوك اليومي، من ضبط اللسان، واحترام الحقوق، وتقديم المصلحة العامة يمثلُّ الطريق الواقعي لبناء مجتمعٍ متآلفٍ، ثابتٍ أمام الاختلاف، ومتوازنٍ في مواجهة التحديات.

أثر تزكية النفس في ترسيخ روح الألفة:

تعتبر تزكية النفس الأساس الذي يُرتكز عليه تماسك الألفة بين القلوب، لأنَّ كثيراً من أسباب التنافر لا تنشأ من اختلاف في الآراء أو المصالح بقدر ما تنبع من أمراض داخلية كالحرص والحسد والكبر وسوء الظن وحب الاستعلاء، فإذا لم تُعالج هذه الميول الباطنية، بقيت العلاقات عرضةً للتوتر والانقسام مهما توفرت وسائل التقارب الظاهرية.

وقد ربط القرآن الكريم بين فلاح الإنسان وتهذيب نفسه فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩-١٠)، فبيّن سبحانه أنَّ إصلاح النفس شرطٌ في صلاح الفرد والمجتمع معاً، وأنَّ الإهمال فيها يولّد الفساد ويهدم أواصر التآلف.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١٦.

وتزكية النفس لا تعني الانعزال عن الآخرين، بل هي سعيٌ عملي لإزالة الدوافع النفسية التي تعرقل العلاقات، فيتحوّل الإنسان من مركزية الذات إلى مراعاة الآخرين، ومن سوء الظن إلى حسن التأويل، ومن المنافسة المدمّرة إلى التعاون البناء والفعال.

وقد أكّد أهل البيت عليه السلام هذا المعنى في قول أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»^(١)، فدلّ كلامه عليه السلام على أنّ العلم إذا انفصل عن تزكية النفس قد يتحوّل إلى أداة لتغذية الكبر والاستعلاء، بينما يفتح التهذيب باب التواضع، ويهيئ النفس لقبول الآخر، وبناء علاقات قائمة على السكينة والتعايش المتوازن.

ومن هنا، يتّضح أنّ تزكية النفس ليست ترفاً فكرياً ولا حالة شعورية عابرة، بل تمثل الركيزة الأخلاقية لترسيخ الألفة الاجتماعية، إذ تُزيل العوائق الداخلية قبل معالجة الإشكالات الخارجية، وتُمكن الإنسان من إقامة علاقات إنسانية قائمة على الصفاء والاحترام، والتكامل، بعيداً عن الصراع والمغالبة.

الأنانية وحبّ الذات كعائقٍ أمام التآلف:

تُشكّل الأنانية وحبّ الذات عائقاً جوهرياً أمام تحقيق الألفة الاجتماعية، لأنّهما ينقلان الإنسان من منطق الشراكة والمسؤولية إلى منطق الاستحواذ والتغليب الدائم للمصلحة الشخصية، وحين تتحكّم الأنانية في التفكير والسلوك، تتحوّل العلاقات من فضاءٍ للتكامل إلى ساحةٍ للمنافسة والصراع، ويصبح الاختلاف سبباً للقطيعة لا مدخلاً للفهم والتقارب.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٢٠.

الدرس العاشر: الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية منظور قرآني تربوي ١٠٧

ويظهر الأثر العملي للأناية في تفاصيل الحياة اليومية، حين يُقدّم الإنسان رأيه بوصفه الحقيقة المطلقة، أو يُصرّ على حقّه دون مراعاة حقوق الآخرين، أو يطلب الاحترام دون أن يلتزم به، فيراكم بذلك مشاعر التذمّر والاحتقان، ويُضعف الثقة المتبادلة داخل الأسرة والمجتمع ومع تكرار هذه السلوكيات، تفقد الجماعة قدرتها على التماسك، لأنّ الألفة لا تقوم مع تضخّم الذات وضيق الأفق.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى خطورة اتّباع الهوى بوصفه أصلاً للفساد الاجتماعي، فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية: ٢٣)، إذ تُبيّن الآية أنّ تقديم الرغبات الذاتية على ميزان الحق يجعل الإنسان خاضعاً لأهوائه، غير قادرٍ على الالتزام بالعدل والإنصاف في تعامله مع الآخرين، وهو ما ينعكس مباشرة على تفتّت العلاقات الإنسانية.

وفي مقابل ذلك، دعى القرآن إلى الإيثار بوصفه القيمة التي تُعيد التوازن للعلاقات، فقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩)، فالإيثار هنا ليس موقفاً استثنائياً، بل منهجاً عملياً يهدّب النفس، ويكسر حدّة الأنا، ويُعيد بناء الروابط الاجتماعية على أساس التعاطف والتكافل.

وقد أكّد أهل البيت (عليهم السلام) هذا المعنى بوضوح، إذ يكشف هذا القول إنّ أصل كثير من الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية يعود إلى تضخّم الذات، وأنّ معالجة هذه الآفة تتمثّل خطوةً أساسية في طريق إصلاح الفرد والمجتمع.

وعليه، فإنَّ تجاوز الأنانية لا يتحقَّق بالشعارات، بل بممارسة عملية قائمة على ضبط النفس عند الخلاف، وتقديم روح التفاهم على منطق الغلبة، واستحضار ميزان الحقِّ قبل المطالبة بالحقوق، فكلَّمًا تراجعت مركزية الأنا، اتَّسعت دائرة الألفة، وقويت روابط المجتمع، لأنَّ التآلف الحقيقي لا ينشأ إلَّا في بيئة تُقدِّم فيها القيم على المصالح، والعدل على الأهواء، والآخر على تضخُّم الذات.

الألفة داخل الأسرة بوصفها النواة الأولى للمجتمع:

تُعَدُّ الأسرة البنية الأولى التي تتكوَّن في إطارها العلاقات الإنسانية، ومنها تتشكَّل ملامح الانسجام أو التنافر في المجتمع الأوسع، ففي نطاقها الضيق تتحدَّد أنماط التفاعل، وترسَّخ أسس التعاون أو الاختلاف، بما يجعلها حجر الأساس في بناء مجتمع متماسك قائم على التراحم والتفاهم.

ولا تنحصر وظيفة الأسرة في حفظ النظام المعيشي، بل تمتدُّ إلى صناعة الإنسان من حيث رؤيته للآخر وطريقة تعاطيه معه.

تتجلَّى أهمية الألفة داخل الأسرة في كونها تُنتج حالة من الاستقرار الداخلي، تنعكس آثارها على الفرد في علاقاته اللاحقة خارج هذا الإطار، فأسلوب إدارة الخلافات بين الزوجين، وطريقة الخطاب المتبادل، وحضور العدل والرحمة في التعامل مع الأبناء، جميعها عناصرُ تسهم في تكوين شخصية قادرة على الانفتاح والتعاون، أو - عند اختلالها - تولد روح الانغلاق والتفكُّك، بما ينعكس سلباً على البناء الاجتماعي العام.

الدرس العاشر: الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية منظور قرآني تربوي ١٠٩

وينطلق المنهج القرآني في هذا المضمار من بيان واضح لدور الأسرة في تحقيق الصلاح العام، إذ إنَّ تغييب معايير الحقِّ والمحبة عن العلاقات الأسرية يُفضي إلى خللٍ تتجاوز آثاره حدود البيت إلى المجتمع بأسره.

ومن هنا حثَّ القرآن الكريم على ترسيخ القيم التي تكمل الألفة بين الزوجين، وتجعل البيت موطناً للسكينة وموتلاً للطمأنينة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

فالمودة والرحمة - بحسب هذا البيان القرآني - ليستا شعورين عابرين، بل هما منهجٌ إلهيٌّ يؤسّس للانسجام داخل الأسرة، ويثمر استقراراً نفسياً وأخلاقياً، يمتدُّ أثره طبيعياً إلى خارج نطاقها.

وقد أكّد أهل البيت (عليه السلام) هذا المعنى في بيانهم لحقوق المؤمنين بعضهم على بعض، فعن الإمام الصادق (عليه السلام) - في رواية أبي المأمون الحارثي - قال: «إنَّ من حقِّ المؤمن على المؤمن المودة له في صدره، والمواساة له في ماله، والخلف له في أهله»^(١)، فإفراد الإمام (عليه السلام) جزءاً من الحقوق «بالخلف له في أهله» يؤكّد أنَّ مراعاة الأسرة والعناية بأواصرها من مظاهر التعامل الإيماني بين الناس، وأنَّ هناك حقّاً ينعكس في البيت قبل أن يعمَّ المجتمع.

وعليه، فإنَّ الألفة داخل الأسرة ليست مجرد علاقة اجتماعية طبيعية، بل هي عملية تربوية متكاملة تركز على الاحترام المتبادل، والوفاء بالحقوق، ومراعاة المصلحة العامة للأسرة.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١٧١.

فالبیت الذی تتوفّر فیہ هذه الأصول ینخرج أفراداً مزوّدین بقدرة علی بناء العلاقات القائمة علی المودة والتعاون والتفاهم، وینعکس هذا الإنتاج الأسري علی صحة المجتمع واستقراره، لأنّ ما یزرعه الإنسان فی بیته یرعده المجتمع جزءاً من بنائه الأخلاقی والاجتماعی.

معالجة أسباب التنازع والاختلاف فی منظور أهل البيت عليه السلام:

ینطلق منهج أهل البيت عليه السلام فی معالجة التنازع من الإقرار بأن الاختلاف سُنّة اجتماعیة لا یمکن إلغاؤها، لكن یمکن ضبطها وتوجيهها، فالمشكلة لا تكمن فی وجود الاختلاف بحدّ ذاته، بل فی طريقة إدارته وتحويله إمّا إلى عامل إصلاح ونضج، أو إلى أداة هدم وتفكّك.

ومن هنا ركّز المنهج النبوی والعلوی علی بناء منظومة أخلاقیة تضبط الخلاف قبل تحوّلِهِ إلى نزاع.

وقد أرشد القرآن الکریم إلى هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦).

فینّ أنّ النزاع غیر المنضبط لا یقتصر أثره علی أطرافه، بل یضعف الجماعة کلّها، ویفقدّها قدرتها علی الثبات والاستمرار.

وفی ضوء هذا المنهج، تتجلّى خطوات معالجة التنازع فی سیرة أهل البيت عليه السلام علی النحو الآتی:

١ - ردّ الخلاف إلى ميزان الحقّ لا إلى الانتصار للنفس:

إذ لا يكون الهدف من الحوار إثبات الذات أو إسقاط الآخر، بل الوصول إلى ما هو أقرب للحقّ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «اعرف الحق تعرف أهله»^(١)، فمتى صار الحقّ هو المرجع، انحسر التعصّب، وسهل التقارب.

٢ - ضبط اللسان واجتناب التصعيد الكلامي:

فإن كثيراً من النزاعات تتسع وتتعاظم بسبب كلمة جارحة، أو حديث متسرّع، أو نقدٍ مبالغ فيه، إذ إنّ الخصومة حين تتجاوز حدود الأدب والخلق تُفسد النيات الصالحة، وتقطع جسور التفاهم والمحبة بين القلوب. فاللسان أداة عظيمة إمّا أن يكون سبباً للألفة، وإمّا أن يكون وقوداً للخصام، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣). لِيُبينَ أنّ ضبط الكلام والحذر من الإساءة طريقٌ لحفظ الألفة واستقرار المجتمع، ولتحقيق ما أراد الله من وحدة القلوب والمودة بين المؤمنين.

٣ - إحسان الظنّ وتجنّب سوء التأويل:

فمنهج أهل البيت عليهم السلام يقوم على حمل فعل المؤمن على أحسنه ما وجد إليه سبيلاً، وقد رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يغلبك منه، ولا تظنّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(٢)، وهو أصلٌ وقائي يمنع تراكم الشكوك، ويُبقي باب الألفة مفتوحاً.

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٤٠، ص ١٢٨.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣٦٢.

٤ - تقديم الإصلاح على المكابرة:

فالرجوع إلى الحق فضيلة لا ضعف، وقد جسد أمير المؤمنين عليه السلام هذا المبدأ عملياً في تعامله مع خصومه، حيث كان يقدم جمع الكلمة على انتصار الموقف الشخصي، وفي القرآن الكريم: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٤).

٥ - جعل الأخوة الإيمانية سقفاً حاكماً للخلاف:

فمهما بلغ الاختلاف، يبقى الإيمان رابطاً أعلى يمنع الانزلاق إلى القطيعة، روي عن أبي عبد الله عليه السلام: «كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية»^(١)، أي بسلوك يعكس أخلاق الاختلاف وضبط النزاع، لا بتأجيجه.

وعليه، فإن منهج أهل البيت عليهم السلام في إدارة الخلاف يقوم على تحويل التنازع من ساحة صدام إلى مساحة مراجعة، ومن سبب للفرقة إلى فرصة للإصلاح، عبر الالتزام بالحق، وضبط النفس، وحفظ الكرامة المتبادلة، وبهذا يتحوّل الاختلاف من عبء اجتماعي إلى عنصر نضج واستقرار، وتُصان الألفة بوصفها قيمةً عليا لا يجوز التفريط بها عند أول خلاف.

الخلاصة:

نخلص بعد هذا الاستعراض إلى أن الألفة والتآلف بين القلوب ليست مجرد شعور عابر، ولا رابطاً شكلياً، بل هي مبدأ إيماني راسخ، وسلوك عملي

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٧٨.

الدرس العاشر: الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية منظور قرآني تربوي ١١٣

متجذّر في العقيدة والخلق، فالتوحيد يوحد الغاية ويصفّي القلوب، وتركيز النفس تهذب الدوافع وتزيل الحسد والكبر، والأسرة تُشكّل النواة التي تُصدّر قيم الانسجام إلى المجتمع، فيما تحدّرنّا الأثرة وحب الذات من التفرقة والانغلاق.

وأخيراً، يبيّن المنهج العلوي والنبوي كيفية إدارة الخلافات وتحويل الاختلاف إلى فرصة للتقارب والإصلاح، لا أداة للهدم والخصومة.

إنّ تطبيق هذه المبادئ عملياً يتطلّب:

١ - ربط كل تصرّف بالمرجعية الإيمانية، فلا يكون العمل للهوى أو المصلحة الشخصية على حساب المصلحة العامة.

٢ - ضبط اللسان ومراقبة الأقوال لتجنّب الإساءة وتصعيد النزاع.

٣ - مراعاة الحقوق والواجبات داخل الأسرة، باعتبارها حجر الأساس للألفة المجتمعية.

٤ - تهذيب النفس ومجاهدة الشهوات والرغبات المفرطة التي تولّد الحسد والكبر.

٥ - تحويل الاختلافات إلى سبل للحوار والتفاهم، والعمل على صيانة روح الجماعة وتعزيز الثقة بين أفراد المجتمع.

ومن هذا المنظور، تصبح الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية، وفق المنهج القرآني والتربوي، صمام أمان للمجتمع، ومرآة لوعي الفرد، ووسيلة لتحقيق الاستقرار النفسي والاجتماعي، وبناء مجتمع متماسك، قادر على الصمود أمام التحديات والنزاعات.

١١٤دروس في الأخلاق

ونسأل الله تعالى أن يُلهمنا حسن التطبيق، ويُوفقنا لتوطيد الألفة بين
قلوبنا، ويبارك في أُسْرنا ومجتمعاتنا، ويثبتنا على الخير والحقّ في جميع أفعالنا
وأقوالنا.

* * *

الدرس الحادي عشر

المُرشد الديني مظهر الأخلاق في سطور الكلمات التربوية

بقصة موسى والخضر عليهما السلام

المقدمة:

يمثّل الإرشاد الديني ركناً أساساً في مسيرة الإنسان نحو الكمال، إذ لا يكتفي الدين بتقرير الأحكام، بل يسعى إلى تهذيب النفوس وصناعة الإنسان الواعي، والمرشد في المنظور القرآني ليس ناقلاً للمعرفة فحسب، بل هو قدوة في الخلق، وحكمة في التوجيه، وصبر في التربية.

ومن أعمق النماذج القرآنية التي تجلّت فيها معالم الإرشاد التربوي، ما ورد في قصة موسى والخضر عليهما السلام في سورة الكهف، حيث تتّضح حدود العلاقة بين العالم والمتعلّم، وأدب الطلب، وضرورة الصبر، وحكمة التدرّج في البيان.

هذه القصة لا تُقرأ بوصفها حادثة عابرة، بل بوصفها منهجاً عملياً يُرشد إلى كيفية بناء العلاقة الصحيحة بين المرشد والمتلقّي، وكيفية الانتفاع بالكلمة التربوية.

وستتناول في هذا الدرس جملةً من المعالم التربوية التي تمسّ واقعنا مباشرة، ونقف عندها وقفة تأمّل وتطبيق:

١ - التواضع في طلب العلم وأدب المتعلّم.

٢ - الصبر أساس الانتفاع بالتربية.

٣ - حكمة المرشد في التدرُّج وعدم التعجُّل في البيان.

٤ - خطورة الاعتراض قبل اكتمال الفهم.

٥ - حفظ العلاقة عند وقوع الاختلاف.

١ - التواضع في طلب العلم وأدب المتعلِّم:

يُبرز القرآن الكريم أدب موسى عليه السلام في طلب العلم، إذ قال للخضر: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف: ٦٦). جاء طلبه في صيغة الاستئذان، مقرونًا بالاتباع، ومقيّدًا بطلب الرشد، مما يكشف عن تواضعٍ علميٍّ رفيع، ويؤكد أنّ الانتفاع بالعلم مشروطٌ بأدب التلقّي.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «من تواضع للمتعلِّمين وذلّ للعلماء ساد بعلمه، فالعلم يرفع الوضيع، وتركه يضع الرفيع، ورأس العلم التواضع»^(١). فالعلم إذا لم يُثمر تواضعاً، لم يُحدث أثره في القلب. ومن هنا، فإنّ أوّل شروط الانتفاع بالمرشد هو التحرُّر من نزعة التعالي، واستحضار النية الصادقة في طلب الإصلاح لا في طلب الغلبة.

٢ - الصبر أساس الانتفاع بالتربية:

أكّد الخضر لموسى عليه السلام حقيقةً جوهرية حين قال: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٦٧).

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٧٥، ص ٨.

الدرس الحادي عشر: المرشد الديني... بقصة موسى والخضر عليه السلام ١١٧

فالمعرفة ليست معلومةً تُلقى فحسب، بل مسيرة تحتاج إلى صبرٍ على الفهم،
وتأنٍّ في الحكم، وانتظارٍ لانكشاف الحكمة، وقد تكرر اعتراض موسى عليه السلام لما
رأى ظاهر الأفعال، غير أن الحكمة لم تكن قد كُشفت له بعد.
وقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: «من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعة بقي في ذلّ
الجهل أبداً»^(١).

ويدل ذلك على أن الصبر شرطٌ أساس في مسار التعلم، وأن التعجل في
الاعتراض قد يحرم الإنسان من إدراك عمق المقصود.

٣ - حكمة المرشد في التدرج وعدم التعجل في البيان:

اشترط الخضر على موسى عليه السلام قائلاً: ﴿قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ
شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (الكهف: ٧٠)، وفي هذا إشارة إلى أن التربية
تقوم على التدرج، وأن كشف المعاني قبل أوانها قد يوقع في الاضطراب.
فالمرشد الحكيم يُراعي حال المتلقي، ويُقدّم له من البيان بقدر طاقته، لأن
المقصود هو البناء لا الإرباك.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إن ههنا لعلمًا جمًّا - وأشار إلى صدره -
لو أصبت له حملة»^(٢)، فليس كل علم يُبثّ دون نظرٍ في استعداد القلوب، ولا
كل حقيقة تُعرض من غير تهيئة.

٤ - خطورة الاعتراض قبل اكتمال الفهم:

إن من أبرز الدروس في هذه القصة ما يتعلق بالتعجل في الاعتراض قبل
انكشاف تمام الصورة، فقد كان اعتراض موسى عليه السلام مستنداً إلى ظاهر المشهد

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ١، ص ١٧٩.

(٢) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٣٦.

الذي رآه، لا إلى حقيقته الباطنة التي لم تُكشف له بعد، قال تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ۖ﴾ (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ (الكهف: ٧١-٧٤).

لقد انطلق الاعتراض من ميزان شرعي صحيح بحسب الظاهر؛ غير أن الحكم لم يكن قد استكمل معطياته، وحين يُنَّ له وجه الحكمة، تبين أن وراء الأفعال أسراراً لم تكن في متناول نظره ابتداءً.

ومن هنا تُستفاد قاعدة أخلاقية دقيقة، وهي أن الحكم على الأفعال قبل استجماع عناصرها الكاملة قد يوقع في الخطأ، ويُنتج موقفاً لا ينسجم مع الواقع. وقد أرشد القرآن إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك منه ولا تظنَّ بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(١)، فالتبُّتُ خُلُقٌ، وحسن الظنِّ أدبٌ، والترثُّ قبل إصدار الأحكام علامة نضج وبصيرة، وكثيرٌ من الخلافات إنما نشأت من قراءة ناقصة، أو فهم مبتور، أو استعجالٍ لم يُتَحَ فرصة اكتمال البيان.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣٦٢.

الدرس الحادي عشر: المرشد الديني... بقصة موسى والخضر عليهما السلام ١١٩

ولو انتظر الإنسان حتّى تتّضح له الملابسات، لو فرّ على نفسه وعلى غيره كثيراً من التنازع وسوء الفهم.

٥ - حفظ العلاقة عند وقوع الاختلاف:

من الدروس البليغة في هذه القصة أنّ الاختلاف، وإن بلغ مداه، لا يبرّر هدم العلاقة ولا إسقاط الكرامة، فلمّا انتهت الرحلة قال الخضر لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (الكهف: ٧٨).

كلمات موجزة، خالية من التوبيخ الجارح أو التعيير، تُعلن انتهاء الصلابة من غير تشهير ولا انتقاص، لم يقل: أخطأت، ولا: أسأت الأدب، بل نسب الأمر إلى عدم الاستطاعة على الصبر، محافظة على مقام المتعلّم، وصيانة لحرمة العلاقة.

وهنا تتجلّى أخلاق المرشد في أسمى صورها، إذ يقي الاحترام قائماً حتّى عند الافتراق، هذا المنهج يؤسّس لقاعدة عملية في حياتنا: إذا تعذّر استمرار المسير المشترك، فليكن الانفصال بأدب، وليُحفظ للآخر قدره، فإنّ كرامة الإنسان لا تُمسّ بسبب اختلاف وجهات النظر.

وقد صنّف أمير المؤمنين عليه السلام الناس فقال: «صنفان: إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»^(١).

فهذا الميزان يُلزم الإنسان بالتعامل مع المخالف بروح الاحترام، لأنّ رابطة الإنسانية أو الإيمان باقية، وإن اختلفت الآراء أو المسارات.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام (شرح علي محمد علي دخیل): ج ٣، ص ١٦٢.

١٢٠ دروس في الأخلاق

وعليه، فإنَّ حفظ العلاقة عند وقوع الاختلاف ليس ترفاً أخلاقياً، بل هو مظهر نضج إيماني ووعي تربوي، يحفظ القلوب من القطيعة، وتبقى الجسور ممتدة حتَّى لو افترقت الطرق.

الخلاصة:

تُظهر قصة موسى والخضر عليه السلام منهجاً تربوياً متكاملًا في الإرشاد، يقوم على تواضع المتعلِّم وصبره، وعلى حكمة المرشد وتدرُّجه في البيان، وعلى الثبُّت قبل الاعتراض، وحفظ العلاقة عند وقوع الاختلاف.

فإذا استُخدمت هذه المعاني في حياتنا اليومية، تصبح الكلمة التربوية أداة إصلاح، والعلاقة بين المرشد والمتلقي سبيلاً للنضج الروحي والأخلاقي، لا ساحةً للخصومة والتوتر.

ومن النصائح العملية المستفادة:

- ١ - تحلَّ بالتواضع في طلب العلم، فالعقل الواعي والقلب الخاضع هما مفتاح الانتفاع بالمعرفة.
- ٢ - اصبر على التوجيه، فلا يعيبك البطء في التعلُّم، فلا تستعجال قد يجرَّ الفهم الخاطئ.
- ٣ - راقب أقوالك وأفعالك، واحفظ الاحترام عند الاختلاف، فالكلمة الطيبة تظل جسراً، والكلمة الجارحة جداراً.
- ٤ - اجعل الفهم العميق هدفك قبل إصدار الحكم على الأحداث أو الأشخاص.

الدرس الحادي عشر: المرشد الديني... بقصة موسى والخضر عليهما السلام ١٢١

٥ - استثمر كل تعليم في تعديل سلوكك وإصلاح ذاتك قبل طلب تعديل الآخرين.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لتطبيق هذه المبادئ في حياتنا اليومية، وأن يجعلنا من المتفعين بكلمات أوليائه، السائرين على نهجهم، إنه وليّ التوفيق.

* * *

الدرس الثاني عشر

كيف تكون عوامل النجاح الاجتماعي؟

المقدمة:

إنَّ النجاح الاجتماعي يظهر في تفاصيل السلوك اليومي، وفي طبيعة العلاقات التي يبنها الإنسان ويصونها مع الناس، فهو ليس عنواناً يُمنح، ولا صورة تُرسم أمام الآخرين، بل هو ثمرة خُلِقَ راسخ، ونفسٍ منضبطة، وسلوكٍ واعٍ.

وقد أسَّس القرآن الكريم لهذا المعنى حين ربط بين الأخلاق ونتائجها العملية، فبيَّن أنَّ استقرار الفرد وطمأنينة المجتمع إنما ينبعان مما يغرسه الإنسان من قيم في أقواله وأفعاله، فالناجح اجتماعياً هو من يُحسن الموازنة بين حقِّه وحقِّ غيره، ويصون الحقوق، ويُعزِّز الثقة، ويجعل من مواقفه اليومية ميداناً للإصلاح والتقارب، لا ساحةً للخصومة والتنازع.

إنَّ المنهج القرآني والتربوي يؤكِّد أنَّ النجاح في الحياة الاجتماعية لا يقوم على المهارات الظاهرية وحدها، بل يركز على تهذيب الأخلاق، وضبط الانفعالات، واحترام الكرامة الإنسانية، وأنَّ القيم العملية المتكرَّرة في حياة الإنسان هي التي تصنع له مكانته الحقيقية في المجتمع.

وهناك عوامل أساسية يقوم عليها هذا النجاح، وتتجلى آثارها في السلوك اليومي والعلاقات المتبادلة، ومن أبرزها ما يأتي:

الصدق والأمانة أساس النجاح الاجتماعي:

الصدق والأمانة هما الأساس الذي يقوم عليه بناء الثقة بين الناس، ويجعل الفرد موضع اعتماد، فلا يُشكك في قوله ولا يُساء الظن في أفعاله، فالصدق يخلق أجواءً من الاطمئنان والتعاون، ويمنح العلاقات متانةً لا تهزها الظروف أو الصراعات، فكلما كان الإنسان صادقاً وأميناً في تعاملاته، زاد احترامه في المجتمع، وانتشر حوله الطمأنينة والاستقرار النفسي والاجتماعي.

وقد أمرنا الله تعالى بأن نكون مع الصادقين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة: ١١٩)، وأوضح رسول الله ﷺ: «إِنَّ الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إِنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وَإِنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، وَإِنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وَإِنَّ الفجور يهدي إلى النار»^(١)، فكل تصرف صادق يبني قيمة عملية في المجتمع.

وقد روي عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «ثلاث لم يجعل الله ﷻ لأحد فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البرِّ والفاجر، والوفاء بالعهد للبرِّ والفاجر، وبرِّ الوالدين برِّين كانا أو فاجرين»^(٢).

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٣، ص ٨٨٥.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١٦٢.

الدرس الثاني عشر: كيف تكون عوامل النجاح الاجتماعي؟ ١٢٥

من هنا، فإنَّ ممارسات الصدق في الحياة اليومية تبدأ بالالتزام بالحقِّ في الكلام، والوفاء بالعهود، والصدق مع النفس قبل الآخرين، إذ إنَّ كلَّ كذب صغير أو تحريف قد يضعف الثقة ويخلق فجوات بين القلوب، بينما الالتزام بالصدق في كلِّ موقف يعزِّز الاحترام المتبادل ويقوي الألفة الاجتماعية، فالصادق هو الذي يُستشار ويُعتمد عليه في القرارات اليومية والمواقف العائلية والمجتمعية، ويصبح سلوكه نموذجاً يُحتذى به في كلِّ تعاملاته.

ضبط النفس أساس الاستقرار الاجتماعي:

ضبط النفس من أهمِّ العوامل التي تحفظ للإنسان مكانته في المجتمع، لأنَّ أكثر الخلافات تبدأ بكلمة متسرَّعة أو موقف اندفاعي لم يُضبط في لحظته، فالإنسان قد يملك نيَّة طيِّبة، لكن عجزه عن السيطرة على غضبه يفسد علاقاته ويهدم ما بناه من ثقة في سنوات، وقد مدح الله تعالى الذين يملكون أنفسهم عند الانفعال، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٤)، فجعل كظم الغيظ طريقاً إلى مرضاته.

وروى الشيخ الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الغضب مفتاح كل شر»^(١)، وهو تنبيه إلى أنَّ الانفعال غير المنضبط يفتح أبواب الندم والقطيعة، والنجاح الاجتماعي يتجلَّى حين يختار الإنسان الصمت الحكيم بدل الرد الجارح، ويؤخر الحكم حتَّى يهدأ، ويعطي نفسه فرصة للتفكير قبل أن يتكلَّم، وأنَّ التريُّث عند الغضب، وخفض الصوت عند الاختلاف، والتماس

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣٠٣.

١٢٦ دروس في الأخلاق

العذر للآخرين، كلّها ممارسات يومية تحمي العلاقات من التصدّع، ومن اعتاد مراجعة نفسه بعد كلّ موقف متوتّر، وسألها: هل كان يمكن أن أتصرّف بهدوء أكثر؟ فإنّه ينمو تدريجياً في وعيه الاجتماعي ويكسب احترام من حوله، فالقوة الحقيقية ليست في شدّة الرد، بل في القدرة على ضبط النفس عند القدرة.

الوفاء بالوعد والالتزامات:

الوفاء بالوعد من أعمدة الثقة في المجتمع، لأنّ العلاقات لا تستقيم إلّا إذا شَعَرَ الناس بالأمان في التعامل مع بعضهم، فالإنسان الذي يعد ثم يخلف، يزرع الشك في القلوب، ويُضعف صورته أمام الآخرين، ولو كان صادق النية، وقد أكّد القرآن الكريم هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٤)، فجعل العهد مسؤولية يُسأل عنها الإنسان، فالمؤمن هو الموفي بالعهد، ومن أشرف الناس منزلة، لأنّ الوفاء يعكس صدق الإيمان ورسوخ الأخلاق، فالنجاح الاجتماعي يظهر حين يلتزم الإنسان بمواعيده، ويؤدّي ما عليه من حقوق مالية أو أُسْرية أو عملية دون تهاون، ويعتذر بصدق إذا طرأ عذر قبل أن يتسبّب في ضرر، وإنّ احترام الوقت، والالتزام بالكلمة، وعدم التسويف في أداء الواجبات، كلّها صور عملية للوفاء، ومن درّب نفسه على عدم إطلاق وعد إلّا بعد القدرة على تنفيذه، حفظ مكانته بين الناس، وصار قوله موثقاً، وحضوره محلّ تقدير، وبذلك تتّسع دائرة تأثيره الاجتماعي بثبات واطمئنان.

التعاون وروح المشاركة:

النجاح الاجتماعي لا يتحقّق بروح الفردية والانعزال، بل ينمو في بيئة التعاون والمشاركة، لأنّ الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي يتكامل مع غيره، وقد

الدرس الثاني عشر: كيف تكون عوامل النجاح الاجتماعي؟ ١٢٧

وَجَّهَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢)، فجعل التعاون سبيلاً لتحقيق الخير العام.

وروي عن رسول الله ﷺ: «يُحَاسِبُ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ»^(١)، في إشارة إلى أنَّ قيمة الإنسان تظهر فيما يقدمه للآخرين، فالتعاون لا يعني فقط الأعمال الكبيرة، بل يبدأ من المواقف اليومية البسيطة؛ من مساعدة محتاج، أو مساندة زميل، أو المشاركة في إصلاح شأن عائلي، والنجاح الاجتماعي يتجلى عندما يشعر الآخرون أنَّ وجودك بينهم إضافة لا عبئاً، وأنَّك تسعى لمصلحة الجماعة لا لمصلحتك الخاصة فقط.

إنَّ المبادرة إلى العون، وتقديم النصيحة بإخلاص، وتحمل جزء من المسؤولية عند الأزمات، كلُّها تبني جسور الثقة وتخلق بيئة يسودها الاحترام. ومن اعتاد أن يسأل نفسه: ماذا أستطيع أن أقدم، لا ماذا أستطيع أن آخذ؟ فإنَّه يرسخ مكانته في القلوب قبل أن يرسخها في المواقع.

الاحترام ومراعاة حقوق الآخرين:

الاحترام هو اللغة المشتركة التي تحفظ العلاقات من الانهيار، لأنَّه يعكس تقدير الإنسان لكرامة غيره مهما اختلف معه، وقد أمر الله تعالى بقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، فجعل حسن القول أساساً في التعامل.

وروى الشيخ الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإنَّ ذلك شيءٌ اعتاده، فلو تركه استوحش لذلك، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء أمانته»^(٢)، وفي ذلك بيان أنَّ الأمن

(١) موسوعة العقائد الإسلامية - محمد الريشهري: ج ٢، ص ٣٧٣.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١٠٥.

الاجتماعي يبدأ من سلوك الفرد، والاحترام يظهر في طريقة الكلام، وفي الإصغاء الجيد، وفي تجنب السخرية أو الانتقاص، وفي مراعاة الخصوصيات وعدم التدخل فيما لا يعني، والنجاح الاجتماعي يتحقق حين يشعر الآخر بأن كرامته محفوظة في حضورك وغيابك، وأنت لا تستغل خطأه لإحراجة، ولا تختلف معه بطريقة تجرحه.

إن تهذيب اللسان، وخفض الصوت عند الحوار، وإعطاء كل ذي حق حقه، ممارسات يومية تعزز التماسك الاجتماعي، ومن جعل الاحترام قاعدة ثابتة في حياته، قلّت خصوماته، وزادت محبته في القلوب، لأن النفوس تميل بطبعها إلى من يصونها ولا يؤذيها.

الخلاصة:

يتضح أن النجاح الاجتماعي ليس أمراً عارضاً، بل هو ثمرة التزام عملي بقيم راسخة تظهر آثارها في تفاصيل السلوك اليومي؛ صدق يورث الثقة، وضبط نفس يصون العلاقات، ووفاء يحفظ المكانة، وتعاون يوثق الروابط، واحترام يحمي الكرامة.

فإذا استقرت هذه المعاني في شخصية الإنسان، تحولت إلى منهج ثابت، وصنعت له حضوراً متوازناً في مجتمعه، وجعلته عنصر إصلاح وبناء لا سبب لفرقة ونزاع.

وهذه هي أخلاق أهل البيت عليهم السلام، وقد كان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله يُعرف بالصادق الأمين، فكان قدوة عملية في مكارم الأخلاق، ونحن مأمورون بالافتداء به وبآله الطاهرين في حسن المعاملة وصيانة الحقوق وبناء العلاقات على أساس التقوى والعدل.

الدرس الثاني عشر: كيف تكون عوامل النجاح الاجتماعي؟ ١٢٩

إنَّ النجاح الحقيقي أن يترك الإنسان أثراً طيباً في قلوب من حوله، وأن يكون موضع ثقةٍ واطمئنانٍ في أسرته وبيئته الاجتماعية، يُؤمّن جانبه ويُحترم حضوره، ويُرجع إليه عند الحاجة لما عُرف عنه من صدقٍ واتّزان.

ولتطبيق هذه المبادئ:

- ١ - اجعل كلّ تصرّف مرتبطاً بالمسؤولية والوعي الديني.
 - ٢ - توقّف قبل الكلام في لحظات الغضب، واحفظ كرامة الآخرين.
 - ٣ - احترم الالتزامات والحقوق، حتّى الصغيرة منها.
 - ٤ - شارك مع الآخرين بما يقوي الجماعة والمصلحة العامة.
 - ٥ - احرص على الاستماع، والاعتراف بحق الآخرين، ومراعاة حدودهم.
- ومن خلال هذه الممارسات اليومية، يتحقّق النجاح الاجتماعي المستدام، ويصبح الإنسان قادراً على بناء مجتمع متماسك، يتعاون أفرادُه، ويصون بعضهم بعضاً، ويعكس القيم العملية التي أرساها القرآن الكريم وسار عليها أهل البيت عليه السلام.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الخلق، وثبات السلوك، وأن يجعلنا من العاملين بهذه المبادئ في واقع حياتنا، إنّه وليّ التوفيق.

الدرس الثالث عشر

كيف تكون أولويات الطرح في الخطاب الديني؟

المقدمة:

إنَّ الخطاب الديني رسالة هداية وبناء، لا مجرد عرضٍ لمعلوماتٍ أو ترديدٍ لنصوصٍ محفوظة، ومن هنا فإنَّ نجاحه لا يتوقف على سلامة المضمون فحسب، بل على حسن ترتيب الأولويات فيه؛ إذ ليس كلُّ حقٍّ يُقال في كلِّ مقام، ولا كلُّ مسألة تُطرح قبل غيرها، فالخلل في ترتيب الطرح قد يؤدي إلى اضطراب الفهم، أو انصراف المتلقي عن المقصد الأساس من الدين.

وقد أرشدنا المنهج القرآني إلى أنَّ البناء يبدأ من تثبيت الأصول قبل التفرع في الجزئيات، وأنَّ مراعاة حال المخاطب جزءٌ من تمام الحكمة في الدعوة، ومن هنا تبرز الحاجة إلى وعيٍ منهجيٍّ يضبط أولويات الخطاب، ليكون مؤثراً في النفوس، ومحققاً لغايته الإصلاحية.

وسوف نقف عند أمورٍ أساسيةٍ يتبيّن من خلالها كيف تُرتَّب الأولويات في

الخطاب الديني، وهي:

١ - تقديم الأصول على الفروع.

٢ - مراعاة حال المخاطب وواقعه.

٣ - اعتماد مبدأ الأهمّ فالمهمّ في القضايا المطروحة.

٤ - التدرّج في الطرح وعدم تحميل المتلقّي ما لا يحتمله.

١ - تقديم الأصول على الفروع:

إنّ من أهمّ أولويّات الطرح في الخطاب الديني أن يبدأ بتثبيت الأصول قبل التفريع في الجزئيات؛ لأنّ البناء لا يقوم من غير أساس، وقد دلّ القرآن الكريم على ذلك حين قدّم المعرفة بالتوحيد على سائر التكالييف، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد ﷺ: ١٩)، فبدأ بالعلم والإيمان قبل العمل، إشارة إلى أنّ صحة المسير متوقّفة على سلامة الأصل.

ومن هنا كان منهج الدعوة الإلهية في مراحلها الأولى قائماً على ترسيخ العقيدة وبناء الوعي الإيماني قبل نزول التفصيلات التشريعية؛ لأنّ القلب إذا امتلأ يقيناً، انقاد الجسد للتكليف عن بصيرة لا عن تكلف.

وقد أكّد هذا المعنى ما رُوي في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «الكمال كل الكمال التفقّه في الدين، والصبر على النائبة وتقدير المعيشة»^(١).

فالتفقّه في الدين قدّم على غيره، لأنّه الذي يمنح السلوك وجهته الصحيحة ويضبط حركة الإنسان في تفاصيل حياته.

وكذلك ما ورد في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «بني الإسلام على خمس: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية»^(٢)، وهو تعبير يكشف عن وجود دعائم يقوم عليها البناء، فلا يُشتغل بتزيين الفروع مع إهمال الأسس.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ١، ص ٨٠.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ١٨.

الدرس الثالث عشر: كيف تكون أولويات الطرح في الخطاب الديني؟ ١٣٣

وعليه، فإنَّ الخطاب الديني إذا أراد أن يكون مؤثراً، فعليه أن يقدم القضايا الكبرى: التوحيد، الولاية، المسؤولية الأخلاقية، مراقبة النفس، ثم ينتقل بعد ذلك إلى الجزئيات، أمَّا البدء بالتفاصيل قبل تثبيت الأصول فقد يُنشئ التزاماً شكلياً سرعان ما يضعف عند أول اختبار.

٢ - مراعاة حال المخاطب وواقعه:

من القواعد المهمة في ترتيب أولويات الطرح في الخطاب الديني مراعاة حال المخاطب ومستواه الفكري والروحي، والنظر في واقعه وظروفه؛ لأنَّ الكلمة إذا لم تُلقَ في موضعها، ولم تُقدَّر بقدر الحاجة، فقد تفقد أثرها أو تنقلب إلى عكس المقصود منها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: ١٢٥)، فالحكمة تقتضي وضع الكلام في موضعه المناسب، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم واستعدادهم.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «قيمة كلِّ امرئ ما يحسنه»^(١)، وهو توجيهٌ يكشف عن تفاوت المدارك والقدرات بين الناس، وأنَّ الخطاب لا بدَّ أن يُبنى على معرفة هذا التفاوت.

كما روي في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ما كلَّم رسول الله ﷺ العباد بكنه عقله قط، قال رسول الله ﷺ: إِنَّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلِّم الناس على قدر عقولهم»^(٢)، وهو نصٌّ صريح في أنَّ مراعاة مستوى المخاطب جزءٌ من منهج الدعوة والتعليم.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١٨.

(٢) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٨، ص ٢٩٢.

ومن هنا، فإنَّ الخطاب الديني الرشيد لا يطرح القضايا الدقيقة أمام من لم يتهيأ لفهمها، ولا يُثقل على الناس بما لا تحتمله عقولهم أو ظروفهم، بل يراعي حالهم، ويبدأ بما يصلح واقعهم، ويعالج ما هو أقرب إلى حاجتهم، فليس من الحكمة الانشغال بالمسائل النظرية المعقَّدة في بيئة تعاني من خللٍ أخلاقيٍّ أو ضعفٍ في الالتزام بالواجبات الأساسية، بل الأولى البدء بإصلاح الأساس الذي يقوم عليه البناء.

وعليه، فإنَّ مراعاة حال المخاطب ليست مجرد أسلوبٍ بلاغي، بل هي قاعدةٌ تربوية أصيلة، تحفظ للخطاب توازنه، وتجعله أقرب إلى القبول، وأدعى إلى التأثير في النفوس.

٣ - اعتماد مبدأ الأهم فالهم في القضايا المطروحة:

من المرتكزات الأساس في تنظيم أولويات الخطاب الديني اعتماد مبدأ الأهم فالهم؛ لأنَّ القضايا ليست على درجة واحدة من الحاجة والأثر، فالمتصدِّي للطرح لا ينتقي موضوعه تبعاً لذوقه الشخصي، بل ينظر إلى حاجة المجتمع وما يترتب على ذلك من مصلحةٍ أو مفسدة، فالخطاب رسالة إصلاح وتقويم، ومن طبيعة الإصلاح أن يبدأ بمعالجة موضع الخلل قبل سواه.

وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا الميزان في تقديم ما يتوقَّف عليه صلاح الناس، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة: ٢)، فجعل البرَّ والتقوى إطاراً جامعاً لكلِّ ما يحقّق الاستقامة، وهو ما يقتضي ملاحظة ما هو أولى بالتقديم في كلِّ ظرفٍ ومرحلة.

الدرس الثالث عشر: كيف تكون أولويات الطرح في الخطاب الديني؟ ١٣٥

كما ورد في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «رأس كل خطيئة حبّ الدنيا»^(١)، وهذا البيان يكشف أنّ معالجة الجذور مقدّمة على الاشتغال بالمظاهر؛ لأنّ إصلاح الأصل يستتبع إصلاح الفروع.

فإذا كان الناس في واقعٍ يجهلون أحكام صلاتهم وصيامهم ومعاملاتهم، كان بيان الأحكام الشرعية أولى من الإكثار من القصص والمواعظ العامة؛ لأنّ الحاجة الفعلية تتعلّق بصحّة عباداتهم ومعاملاتهم، وأمّا إذا كان الخلل ظاهراً في السلوك والأخلاق، وكانت القسوة أو سوء المعاملة أو التفكك الاجتماعي هي المشكلة الأبرز، فإنّ تقديم تهذيب الأخلاق وتقويم السلوك يكون أولى من الخوض في مباحث نظرية لا تمسّ واقعهم مباشرة.

وهكذا يغدو الخطاب الديني مرآةً لحاجة المجتمع؛ فإن رأى ضعفاً في الالتزام بالأحكام قدّم بيانها، وإن لمس انحرافاً أخلاقياً ركّز على معالجته، وإن واجه شبهةً عقديّةً تهدّد الإيمان بادر إلى دفعها قبل غيرها، وبهذا يتحقّق التوازن، ويصبح الطرح موجّهاً نحو البناء الحقيقي لا نحو الاستعراض أو التكرار. ومراعاة الأهمّ فالمهمّ هي التي تحفظ للخطاب أثره، وتجعل لكلّ كلمةٍ موضعها، ولكلّ موضوعٍ زمنه المناسب، انسجاماً مع مقاصد الشريعة في الهداية والإصلاح.

٤ - التدرّج في الطرح وعدم تحميل المتلقّي ما لا يحتمله:

التدرّج في الخطاب الديني ليس مجرد أسلوبٍ تنظيمي، بل هو منهجٌ تربويّ يراعي طبيعة النفس البشرية في النموّ والالتزام، فالنفس لا تنتقل من حالٍ إلى

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣١٥.

حالٍ دفعةً واحدة، بل تحتاج إلى تهيئةٍ وتمهيد، وإلى بناءٍ متراكمٍ يُرسِّخ المعنى قبل أن يُطالب بالسلوك الكامل.

وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، كما ظهر التدرُّج في مسار التشريع نفسه، ومن أوضح أمثله تحريم الخمر؛ إذ لم يُحرَّم دفعةً واحدة، بل نزل الحكم على مراحل، ابتداءً ببيان ما فيه من إثمٍ ومنافع، ثم النهي عن قربان الصلاة حال السكر، حتَّى استقرَّ التحريم القطعي، مراعاةً لواقع المجتمع واستعداده.

ومن الأمثلة التطبيقية في الخطاب:

أ - إذا كان المخاطب حديث عهدٍ بالالتزام، فلا يُطالب ابتداءً بالنوافل الكثيرة والبرامج العبادية المكثَّفة، بل يُركَّز معه على تثبيت الفرائض وإتقانها، ثم يُرغَّب تدريجياً في المستحبَّات، حتَّى ينشأ الالتزام عن حبٍّ وقناعة لا عن إرهاقٍ وضغط.

ب - وإذا كان الشاب يعاني من ضعفٍ في بعض السلوكيات، فالأولى البدء بمعالجة أصل العلاقة بالله تعالى، وتعميق الشعور بالمراقبة، بدل الاقتصار على التوبيخ المباشر لكلِّ جزئية سلوكية؛ لأنَّ إصلاح الجذر يُسهِّل إصلاح الفروع.

ج - وفي مجال التعليم، لا يُقدَّم لطالبٍ مبتدئٍ في الفقه دقائق مباحث التعارض والترجيح قبل أن يُحكم أصول الاستنباط الأولية، بل يُبنى معه الفهم مرحلةً بعد مرحلة، حتَّى لا تتحوَّل المادة العلمية إلى عبءٍ يُضعف الدافعية.

د - في الإصلاح الاجتماعي، إذا كان المجتمع مبتلىً بتفكُّكٍ أخلاقي، فالأولى بثَّ روح الرحمة والتكافل وتعزيز القيم العامة، قبل الدخول في تفصيلاتٍ نظريةٍ قد لا تجد أرضيةً قابلةً لاستقبالها.

الدرس الثالث عشر: كيف تكون أولويات الطرح في الخطاب الديني؟ ١٣٧

وقد ورد في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنَّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تُكْرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى»^(١)، وهو توجيهٌ جامعٌ يبيِّن أنَّ الرفق والتدرُّج هما الطريق الأقرب إلى ترسيخ المعاني، وأنَّ الاستعجال قد يؤدِّي إلى النفور بدل الثبات.

وعليه، فإنَّ التدرُّج في الطرح ليس تنازلاً عن الكمال، بل هو الطريق الواقعي للوصول إليه؛ لأنَّ النفوس إذا حُمِلت فوق طاقتها انقطعت، وإذا سِير بها على قدر استعدادها استقرَّت وارتقت بثبات.

الخلاصة:

يتبيَّن من مجموع ما تقدَّم أنَّ نجاح الخطاب الديني لا يقوم على كثرة المادة المطروحة ولا على شدَّة الطرح وحدته، بل على مراعاة سُنن النفس الإنسانية في الفهم والالتزام، واعتماد التدرُّج منهجاً أصيلاً في البناء، فالتدرُّج ليس أسلوباً ظرفياً يُلجأ إليه عند الحاجة، بل هو قاعدة تربوية راسخة دلَّ عليها القرآن الكريم في مسار التشريع، وأكَّدها سيرة المعصومين عليهم السلام في دعوتهم وتعليمهم وإرشادهم.

وقد ظهر أنَّ هذا الأصل يجمع بين البُعدين المعرفي والسلوكي؛ إذ يُعنى ببناء الفهم العلمي مرحلةً بعد مرحلة، كما يُعنى بترسيخ الالتزام العملي تدريجياً حتَّى تتكوَّن الملكة وتثبت القناعة، فالخطاب الذي يتجاوز طاقة المتلقِّي يورث النفور، أمَّا الخطاب الذي يسير معه على قدر استعدادهِ فيثمر رسوخاً وثباتاً.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٨٦.

ولأجل تفعيل هذا المبدأ في الواقع العملي يمكن الإشارة إلى نماذج تطبيقية واضحة:

١ - في مجال الإرشاد الفردي: يبدأ المرّبي بترسيخ أصل العلاقة بالله تعالى، وتعميق معنى المراقبة والرجاء، قبل الانتقال إلى معالجة التفاصيل السلوكية الجزئية، فيكون البناء من الجذر إلى الفرع.

٢ - في التعليم الحوزوي أو الأكاديمي: يُقدّم للطالب الأساس المتين من المبادئ والقواعد، ثم يُنقل تدريجياً إلى دقات المسائل ومباحث التعارض والترجيح، بحيث لا تتحوّل المادة العلمية إلى عبء يضعف الدافعية.

٣ - في الإصلاح الأسري: يُركّز أولاً على إحياء روح الحوار والاحترام المتبادل، ثم يُنتقل إلى معالجة الخلافات التفصيلية، لأنّ إصلاح المناخ العام يُمهّد لقبول الحلول الجزئية.

٤ - في العمل التبليغي العام: تُطرح القيم الكلية الجامعة، كالتقوى والعدالة والرحمة، قبل الخوض في التفاصيل الدقيقة، حتّى تُبنى أرضية وجدانية ومعرفية قابلة للاستيعاب.

وعليه، فإنّ التدرّج في الطرح يمثل ضماناً منهجية لسلامة التأثير واستمراريته، ويعبّر عن وعي بطبيعة الإنسان وواقعه، ويُجسّد روح الرحمة في الدعوة، ليبقى الدين قريباً من القلوب، راسخاً في العقول، متجذراً في السلوك.

الدرس الرابع عشر

الصدقة بين الجنسين تحليل واقعي أخلاقي

المقدمة:

الصدقة بين الجنسين مسألة حساسة تستوجب فهماً تربوياً وعملياً، فهي ليست مجرد علاقة اجتماعية عابرة، ولا رابطاً يُحسب على الصداقات اليومية، بل هي تجربة حياتية يُستلزم أن تُدار بضبط النفس ومراعاة الحدود الشرعية والخلق القويم، فإنَّ التعامل مع الجنس الآخر إذا خلا عن هذه الضوابط، قد يفضي إلى انحراف في السلوك، واضطراب نفسي، وتأثير سلبي على الأسرة والمجتمع. وقد حذّر القرآن الكريم من الاختلاط الذي قد يؤدي إلى الفتنة والمعصية، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٢)، وقال سبحانه في حقِّ المؤمنات: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣١).

فالمراد من هذه النصوص ليس تحريم التعامل المحمود أو التواصل الاجتماعي، بل ضبط العلاقة بما يحفظ النفس والكرامة، ويمنع الانزلاق نحو ما يضر بالإيمان والسلوك، وإنَّ الصداقة الصحيحة تقوم على الاحترام، ووضوح الهدف، وترك الخلوة، وضبط العواطف والانفعالات، والمراقبة الدائمة لله تعالى،

١٤٠ دروس في الأخلاق

فتتحوّل المواقف اليومية إلى فرص لتعزيز القيم الإيمانية والاجتماعية، دون إخلال بالالتزام الشرعي.

وسوف نقوم في هذا الدرس بعدد من الأمور العملية التي تساعد على ضبط هذه العلاقات وفق منهج أهل البيت عليه السلام:

- ١ - فهم طبيعة العلاقة وأهدافها.
- ٢ - الضوابط الأخلاقية للمعاملات.
- ٣ - التصرف العملي لتجنب الانزلاقات.
- ٤ - الأثر الإيماني.

فهم طبيعة العلاقة وأهدافها:

إنَّ فهم طبيعة الصداقة بين الجنسين هو الخطوة الأولى لضبط العلاقة بشكلٍ سليم، فلا تُبنى الصداقة الصحيحة على الانجراف وراء المشاعر العابرة أو الفضول الاجتماعي، بل على وضوح الهدف والنية، والتمييز بين ما هو إيجابي مفيد وما قد يؤدي إلى الفتنة أو الإضرار بالنفس والآخرين، فالإنسان الحكيم يعي أنَّ العلاقة مع الجنس الآخر إذا لم تُحدّد أهدافها، تصبح أرضاً خصبة للغرور، أو الانحراف، أو الإضرار بالعلاقات الأسرية والاجتماعية.

وقد شدّد القرآن الكريم على أهمية ضبط العلاقة بما يحفظ الكرامة والنفس، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ﴾ (الإسراء: ٣٢)، أي لا يقترب الإنسان من ما يفضي إلى الفساد، وأيضاً في شأن المؤمنات: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ (النور: ٣١)، إشارة إلى ضرورة الحذر في النظر والتعامل، فلا يخلّ المسلم بعلاقاته بالحدود التي يقرّها الشرع.

الدرس الرابع عشر: الصداقة بين الجنسين تحليل واقعي أخلاقي ١٤١

هذا المعنى ينسحب على العلاقات الاجتماعية، فالمؤمن يراعي الآخرين في كل تعاملاته، ويُحسن الظن بهم، ولا يجعل الصداقة وسيلة للانحراف أو الضرر.

تطبيق عملي:

- ١ - قبل أي تواصل مع الجنس الآخر، وضح لنفسك الهدف من العلاقة: هل هو تعارف مهني، دراسة مشتركة، أو نشاط اجتماعي مشروع؟
- ٢ - تجنب الصداقات التي لا تحمل نفعاً أو هدفاً شرعياً، واحذر الانجراف وراء العواطف أو الفضول.
- ٣ - ضع حدوداً واضحة للتواصل، مثل تجنب الخلوة أو المكالمات الخاصة، والاحتفاظ بالاحترام في كل لقاء أو محادثة.
- ٤ - اجعل العلاقة وسيلة لتطوير الأخلاق والسلوك، مثل التعاون على مشروع مفيد أو مشاركة في نشاط خيري، لا علاقة مبنية على التسلية أو الانحراف.
- ٥ - راقب نفسك دائماً: هل تصرفاتك تنعكس بالخير على نفسك وعلى الآخرين، أم أنها تثير مشاعر غير سليمة أو فتنة؟

الضوابط الأخلاقية للمعاملات:

الصداقة بين الجنسين لها أثر مباشر على سلوك الفرد ونفسيته، وعلى محيطه الأسري والاجتماعي، لذا يجب أن تُبنى على ضوابط شرعية واضحة، فالآية الكريمة تقول: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ حُجْرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ

زَيْنَتُهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ (النور: ٣١)، وهي تُبَيِّنُ بوضوح من يمكن التواصل معهم بأمان وحرية شرعية، فهم الأب، الأم، الأخ، الأخت، العم، العمة، الخال، الخالة، الزوجة، البنون، وبقية المحارم.

التواصل مع هؤلاء يكون طبيعياً، بالضرورة الاجتماعية والأسرة، دون أن يترتب عليه خوف من الانزلاق أو الحرام، فلا يُحَرِّم الحديث أو المراسلة أو التعاون في الشؤون اليومية طالما حافظ كل فرد على الاحترام وضبط النفس والانفعالات، بشرط أن يكون خالياً من أي إثارة للشهوة ومع الأمن من الانزلاق إلى الحرام.

أمّا مع الغريب، أي من دون رابط شرعي، فلا يجوز التواصل بأي شكل من أشكال المراسلة الصوتية أو الكتابية، ولا المزاح أو المفاكهة أو ممارسة الحب أو إظهاره، ولا أن تتكلّم المرأة بما يثير الشهوة أو ترقّق صوتها بحيث يكون مثيراً، ولا للرجل أن يستمع إلى الصوت بتلذذ جنسي، ويجوز الكلام إذا كان خالياً من أي إثارة للشهوة ومع الأمن من الانزلاق إلى الحرام، مع الالتزام بعدم التلذذ والانفعالات العاطفية، والحفاظ على جدية الصوت وحدوده، وجعل الحديث مرتبطاً بالعلم أو العمل أو المصلحة المشروعة^(١).

(١) ينظر: <https://www.sistani.org/arabic/qa/> ٠٤٤١/

الدرس الرابع عشر: الصداقة بين الجنسين تحليل واقعي أخلاقي ١٤٣

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مناقشة النساء يعني محادثتهن...»^(١).

بهذا الأسلوب، تصبح العلاقة بين الجنسين آمنة ومتوازنة، ويستفيد كل طرف من التواصل الاجتماعي والتعاون بما يعزز القيم الإيمانية والاجتماعية، دون أن يهدد الالتزام الديني أو يفتح أبواب الانحراف الأخلاقي.

التصرّف العملي لتجنب الانزلاقات:

لكي تكون الصداقة بين الجنسين آمنة ومتوازنة، لا يكفي معرفة الضوابط النظرية، بل يجب تحويلها إلى ممارسة يومية واضحة، فالتصرّف السليم يبدأ بالوعي الكامل بالحدود الشرعية، والالتزام بما يقي النفس من الانجراف نحو ما يحرم، وعلى الإنسان أن يراعي طبيعة الحديث ومضمونه، فلا يشارك في نقاش قد يثير الغرائز أو الانفعالات العاطفية، ويتعد عن المزاح والمفاكهة التي تميل إلى الشهوة، مع الحفاظ على صدق الحديث ووضوح الهدف، بحيث يكون للتواصل معنى مشروعاً أو نافعة عملية، لا مجرد ترفيه أو علاقة غير محسوبة.

وتتطلب الممارسة العملية ضبط الصوت ونبرة الكلام، فلا ترقق المرأة صوتها بطريقة مثيرة، ولا يستمع الرجل إلى ما يثير الشهوة، مع التركيز على الغرض من الحديث مثل العلم أو المصلحة العامة، مع الحذر من الخلوة أو المحادثات الخاصة التي لا ضرورة لها.

ويُراعى في ذلك فرق التعامل؛ فالتواصل مع المحارم مثل الأب والأم والإخوة والأخوات والعم والعمة والخال والخالة يكون طبيعياً مع الاحترام

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) - الحر العاملي: ج ٢٠، ص ١٩٧.

وعدم الدخول في خصوصيات تثير الشهوة أو الريبة، أمّا مع الأجانب فلا يجوز أي اتصال شخصي أو مراسلة خاصة إلاّ مع الأمن التام من الانزلاق وضمن حدود شرعية صارمة.

كما أنّ على المؤمن مراقبة نفسه باستمرار، وملاحظة كل شعور بالميل نحو الانجراف، وعند الحاجة تقليل التواصل أو تغييره إلى أنشطة نافعة بديلة، تعمل على تعزيز الالتزام الشرعي وتقوية الوازع الديني.

ومن خلال هذا الانضباط العملي، يتحقّق التوازن بين التفاعل الاجتماعي والحفاظ على النفس، فتظل الصداقة صحية والعلاقة متينة، وتصبح كل مناسبة للتعامل وسيلة لترسيخ الرقابة على النفس والمراقبة لله تعالى، بما يعزّز الشخصية الاجتماعية والإيمانية دون أن تهدّد الالتزام الديني.

الأثر الإيماني والاجتماعي للتواصل المحرّم:

التواصل بين الجنسين من دون عقد شرعي له آثار مباشرة وسلبية على الفرد والمجتمع معاً، فالمخاطرة بما حرّم الله تضع الإنسان في موقع منبوذ اجتماعياً، إذ تتأثر سمعته وأمانته بين الناس، ويصبح سبباً للريبة والفتنة في محيطه الأسري والاجتماعي، كما أنّ الانخراط في مثل هذه العلاقات يضعف الشعور بالمسؤولية والالتزام الديني، ويؤدّي إلى تراجع مراقبة النفس وتراخي الضوابط الأخلاقية، ما يفتح الباب للمعاصي والانحرافات الصغيرة التي تتصاعد مع الزمن.

الدرس الرابع عشر: الصداقة بين الجنسين تحليل واقعي أخلاقي ١٤٥

وقد حذّر أهل البيت عليهم السلام من عواقب الانغماس في ما حرّم الله، فقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وكما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، وكما تصنع يصنع بك، وما قدمت إليه تقدم عليه غداً لا محالة»^(١).

وهذا النص يوضّح بجلاء أنّ كلّ تصرّف خارج حدود الشرع سيعود أثره على صاحبه عاجلاً أو آجلاً، سواء في الدنيا بفضيحة أو خيبة، أو في الآخرة بالمساءلة والعقوبة.

لذلك، فإنّ الالتزام بالحدود الشرعية وحفظ النفس من الانزلاق نحو الحرام ليس مسألة اختيارية، بل هو حماية للشخصية الدينية والاجتماعية معاً، فالمسلم الذي يحافظ على حلاله ويتعدى المحرّم يظل محل ثقة واحترام، ويكون قدوة صالحة، ويحول علاقاته مع الجنس الآخر إلى علاقات نافعة ومقبولة شرعاً، تحفظ كرامته وتحمي مجتمعه من الفتنة والانحراف.

وفي الختام:

إنّ التواصل بين الجنسين إذا أُدير بحكمة وضبطت بضوابط شرعية واضحة تتحوّل من مصدر خطر إلى وسيلة لتعزيز القيم الإيمانية والاجتماعية وبناء شخصية متوازنة ولذلك، على كلّ مسلم ومسلمة أن يجعلوا صيانة النفس واحترام الحدود هدفاً عملياً يومياً في تعاملاتهم، بالابتعاد عن كل ما يثير الشهوة أو الانزلاق نحو الحرام، ومراعاة الاختلاف بين المحارم والأجانب، ومراجعة النفس باستمرار للتأكد من ثبات السلوك.

(١) تحف العقول عن آل الرسول عليهم السلام - ابن شعبة الحراني: ص ١٦٧.

وعلينا أن نحرص دائماً على أن يكون التواصل مع الآخرين بهدف نافع وضمن حدود واضحة، مع تجنب الخلوة والمحادثات الخاصة غير الضرورية، والحفاظ على جدية الصوت وضبط الانفعالات، فبهذه الممارسة العملية تُرسخ الثقة مع الآخرين، وتحفظ النفس من الفتنة، وتصبح الصداقة وسيلة لتعزيز الدين والأخلاق، لا مصدراً للانحراف أو الضرر الاجتماعي، ويظل الله تعالى رقيباً على كل فعل، يعين على الثبات والالتزام.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الثبات على طاعته، وحفظ النفس من الانزلاق إلى المحرّم، ويعيننا على أن نكون قدوة صالحة في مجتمعنا، وأن يبعد عنا كل ما يجرّ إلى الفتنة والضرر، بحق محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الدرس الخامس عشر

الاستبداد الديني والتعصب - المنشأ والآثار

المقدمة:

يُعدّ الاستبداد الديني والتعصب من أخطر الانحرافات التي تهدّد البيئة الأخلاقية للمجتمع الإنساني، إذ لا يعكسان التزاماً حقيقياً بالدين، بل هي سيطرة للهوى الشخصي والرأي الفردي على النصوص الشرعية، وتحويل الدين من منهج هداية ورحمة إلى أداة للهيمنة والسيطرة على الآخرين.

وهذه الظواهر لا تقتصر آثارها على الشخص المتعصب نفسه، بل تمتد لتزعزع روابط المجتمع، وتضعف قيم التعاون والعدل والرحمة، وتجعل الدين مصدر خوف وقسوة بدل أن يكون نوراً وهداية، كل انحراف في السلوك الفردي الناجم عن التعصب ينعكس مباشرة على المحيط الاجتماعي، ويؤدّي إلى انقسام المجتمع، وانحدار القيم، وانتشار السلوكيات الضارة التي تهدّد الأمن الروحي والأخلاقي للأمة.

في هذا الدرس، سنركّز على ثلاثة محاور عملية:

الأول: منشأ الاستبداد الديني والتعصب وكيفية فهم جذور الانحراف.

١٤٨ دروس في الأخلاق

الثاني: الآثار السلوكية والاجتماعية وكيف ينعكس التعصّب على الفرد والمجتمع.

الثالث: سبل الوقاية والمعالجة العملية لصيانة المجتمع والدين من هذه الآفة.

منشأ الاستبداد الديني والتعصّب:

الاستبداد الديني والتعصّب لا ينشأ فجأة، بل له جذور عميقة تنطلق من داخل الفرد نفسه قبل أن تظهر آثارها على المجتمع، فهما نتاج لغلبة الهوى الشخصي على الحق، ورغبة الإنسان في فرض رأيه الخاص باسم الدين، وتحويل النصوص المقدسة من منهج هداية ورحمة إلى أداة للسيطرة والتحكّم، ويزداد خطرهما عندما يغلق الإنسان قلبه وعقله عن الحوار وتقبل الآراء الأخرى، ويقتصر فهمه على التطبيق الصوري للنصوص، بعيداً عن روح الدين ومقصده. وقد حذّر أهل البيت عليهم السلام من أن الهوى الشخصي والعصبية هما أصل الانحراف والتعصّب، فقد روى السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»^(١)، وهو تحذير عملي من خطورة تسلط الهوى على الدين، وما يترتب عليه من فساد للنفس والمجتمع، كما أشار القرآن الكريم إلى أمثال الذين سيئون استخدام الدين بقوله تعالى: ﴿يُبْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة: ٥)، ليبين أن الانحراف عن منهجية الدين الصحيحة، والانقياد للرأي الشخصي، هو ما يفسد القيم ويهدد البيئة الأخلاقية، وليس الدين نفسه.

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣٠٨.

الدرس الخامس عشر: الاستبداد الديني والتعصُّب - المنشأ والآثار ١٤٩

من جانب الفرد، فإنَّ الاستبداد والتعصُّب يظهران حين يفتقر الإنسان إلى مراقبة نفسه ويعتمد على العاطفة أو الهوى في إصدار الأحكام، ويجعل من الدين أداة للسيطرة أو لإثبات التفوُّق على الآخرين، وإذا اتَّصف العالم أو المسؤول بالانحراف الشخصي والعصبيَّة، فإنَّ الخطر يزداد، لأنَّه يمتلك المعرفة بالنصوص والحقائق، ومع ذلك يغلب عليه هواه، ويستغل الدين لتثبيت سلطته، فتحوَّل النصوص المقدَّسة إلى أدوات ضغط وخوف، وتضعف الروابط الاجتماعية.

والتطبيق العملي للوقاية من التعصُّب والاستبداد لا يتحقَّق بشعار يُرفع، بل بمسارٍ تربويٍّ دائم يبدأ من داخل النفس، وأوَّل هذا المسار محاسبة الذات محاسبةً جادَّة، ومراجعة سيرة أهل البيت (عليه السلام) بما تحمله من نماذج سامية في سعة الصدر، والحلم، واحترام الإنسان وإن خالف، كما يقتضي الرجوع إلى منهج علماء الدين الراسخين، الذين عُرِفوا بالتحقيق والإنصاف، لا بالاكْتفاء بالفهم الشخصي أو الاندفاع العاطفي.

ومن تمام هذا المنهج التثبُّت من فهم النصوص قبل الدعوة إليها أو إصدار الأحكام على أساسها، فإنَّ كثيراً من مظاهر التعصُّب تنشأ من قراءةٍ مجتزئة أو فهمٍ غير مكتمل، ومن هنا كانت المراجعة اليومية للنفس ضرورةً ملحَّة، بأن يسأل الإنسان نفسه بصدق: هل ما أقول وأفعل منطلقٌ من طلب الحق والهدى، أم من نزعةٍ إثبات الذات وحبِّ الغلبة والسيطرة؟ فإن وجد في قلبه أثراً للهوى، بادر إلى معالجته قبل أن يتحوَّل إلى سلوكٍ يضرُّ به وبغيره.

ويأتي بعد ذلك ضبط الانفعالات، لأنَّ كثيراً من مظاهر الاستبداد تبدأ بانفعالٍ غير مضبوط يتلبَّس لبوس الغيرة على الدين.

فالدين في جوهره رسالة هداية ورحمة، لا وسيلة قهرٍ أو تخويف، وحين يربط الإنسان تعامله مع الآخرين بالرفق والعدل والرحمة، مستحضراً القيم القرآنية ومناهج العترة الطاهرة، فإنَّه يتعد عن فرض الرأي، ويتحرَّر من نزعة التفوُّق باسم التدين، ويجعل من الحوار وسيلته، ومن الحكمة أسلوبه.

وبهذه الممارسات العملية المتواصلة ينمو الوعي الأخلاقي في داخل الإنسان، فيتحوَّل التعصُّب من خطرٍ كامنٍ يهدِّد النفس والمجتمع إلى حالةٍ منضبطةٍ تحت رقابة الضمير والعقل، وعندئذٍ يغدو الدين منهجَ هدايةٍ ورحمةٍ كما أراده الله تعالى، ويصبح المجتمع بيئةً متوازنةً تُصان فيها الكرامة، ويُتحدى فيها بالعدل والتواضع والتسامح.

السلوكية والاجتماعية للاستبداد والتعصُّب:

الاستبداد الديني يؤدي إلى آثار مباشرة على الفرد والمجتمع، وعلى الفرد فقدان القدرة على التفكير النقدي والمرونة في التعامل مع الآخرين، وانتشار الغرور الديني والشعور بالتفوُّق على الآخرين ما يؤدي إلى الانعزال النفسي والاجتماعي، والإحساس الدائم بالخوف من الآخرين أو من النقد نتيجة التحكم الشديد أو القلق من مخالفة الأعراف الجامدة على المجتمع يؤدي الاستبداد إلى تفكُّك روابط التعاون وظهور الانقسامات والصراعات الطائفية أو الفكرية، وتراجع دور المجتمع في نشر القيم الأخلاقية لأنَّ الدين أصبح أداة سلطة لا هداية، وضعف البيئة الأخلاقية وانتشار الفساد الأخلاقي بسبب فقدان الوازع الإيماني النابع من الفهم الصحيح للشرع.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إنَّما بدء وقوع الفتن أهواء تتَّبَع، وأحكام تبتدع، يخالف فيها كتاب الله، ويتولَّى عليها رجال رجالاً على غير دين الله»^(١)، وهذا يؤكِّد أنَّ الاستبداد والتعصب ليسا مجرد أخطاء فردية، بل لهما انعكاس عملي مباشر على المجتمع ككله.

التطبيق العملي يكون بمراقبة النفس لتجنُّب الغلظة أو التعالي باسم الدين، والتحلي بالمرونة والاستماع للآراء المختلفة دون الشعور بالتهديد أو الإساءة للذات الدينية، وتعزيز ثقافة الحوار البناء بنصيحة وإرشاد وفق ضوابط شرعية وأخلاقية.

سبل الوقاية والمعالجة العملية:

تبدأ الوقاية من ظاهرة الغلو والانحراف بالتحصين الذاتي للفرد، وبناء المجتمع على أسس فكرية وتربوية سليمة، ومن أهم تلك الأسس ترسيخ مبدأ القدوة الصالحة، من خلال الاقتداء بالعلماء والأولياء الذين جمعوا بين العلم والتواضع، وجسّدوا في سلوكهم العملي معاني الاعتدال والانضباط الشرعي، كما يتجلّى هذا التحصين في اعتماد منهج محاسبة النفس ومراجعة السلوك باستمرار، وهو منهج أكّده النصوص الدينية، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا، وتجهّزوا للعرض الأكبر»^(٢)، فهذه المراجعة الدائمة للسلوك تُعين الإنسان على تصحيح مساره، وتقويه الوقوع في مسالك الغلو والانحراف.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ١، ص ٩٩.

(٢) وفي بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٦٧، ص ٧٥.

ومن الوسائل المهمة في هذا المجال أيضاً التربية على روح التسامح، وتنشئة الأجيال - ولا سيما الشباب - على احترام الآخرين، وترسيخ ثقافة الاختلاف المنضبط، بحيث لا يُستخدم الدين وسيلةً لفرض الرأي أو أداةً للهيمنة والسيطرة.

ويُضاف إلى ذلك تفعيل الحوار المؤسسي داخل المجتمع، والعمل على نشر ثقافة النقاش العلمي الرصين القائم على الدليل والنصوص المعتبرة، بعيداً عن الانفعال العاطفي أو التشنُّج في المواقف.

وباعتماد هذه المسارات التربوية والفكرية يصبح المجتمع أكثر قدرةً على صيانة قيمه الأخلاقية والدينية، والمحافظة على توازنه الفكري، من غير أن ينزلق إلى دوائر التعصُّب أو مظاهر الاستبداد.

كما يسهم ذلك في تحصين الفرد من الوقوع في الغلوّ أو الانقياد للهوى الشخصي، بما يفضي في نهاية المطاف إلى حفظ سلامة البنية الاجتماعية واستقامة مسارها القيمي.

وفي الختام:

يتبيّن أنّ الاستبداد الديني والتعصُّب لا يمثّلان طريقاً للهداية ولا وسيلةً لإصلاح المجتمع، بل هما انحرافٌ عن منهج الله تعالى، وسببٌ لفساد القيم واضطراب العلاقات بين الناس، ومن هنا تبرز مسؤولية الإنسان في أن يراجع نفسه مراجعةً دائمة، وأن يحاسب سلوكه قبل أن يُحاسب، وأن يحذر من الغلوّ في الدين أو التمسُّك بالرأي الشخصي على حساب الحقّ والعدل.

الدرس الخامس عشر: الاستبداد الديني والتعصُّب - المنشأ والآثار ١٥٣

فالدين الذي أراده الله تعالى هو دين رحمةٍ وهداية، لا دين قسوةٍ وتسُلُط؛ ولذلك ينبغي أن تقوم علاقة الإنسان بالآخرين على التواضع والرفق، وأن تُبنى موافقه وآراؤه على العلم والفهم الصحيح للنصوص الشرعية، لا على الهوى والانفعال.

كما أن من الواجب أن يربِّي الإنسان نفسه والآخرين على الحكمة وحسن الكلمة، وأن يسعى إلى نشر روح التسامح والحوار البناء في المجتمع، بعيداً عن التعالي أو فرض الرأي باسم الدين.

وبهذا النهج العملي يصبح الإنسان قدوةً في أخلاقه وتعاملاته، ويسهم في بناء مجتمعٍ تسوده الرحمة والعدل، وتُصان فيه القيم الدينية والأخلاقية من الانحراف والغلو، ليبقى الدين كما أراده الله تعالى منهج هداية وإصلاح، يقوم على الحق والعدل والاعتدال.

* * *

الدرس السادس عشر

الحالة الدينية ومرض الغرور

المقدمة:

قد يظنّ الإنسان أنّ التدبُّنَ بمجرد مظاهره الخارجية كافٍ لجعله في مأمن من الانحراف الأخلاقي، غير أنّ التجربة الإنسانية والتوجيهات القرآنية تكشف أنّ أخطر ما قد يصيب الإنسان المتدبّن هو مرض الغرور الديني، فالتدبّن في أصله طريقٌ إلى التواضع والخضوع لله تعالى، لكن حين يختلط بالهوى أو بحبّ الظهور يتحوّل من وسيلةٍ للتقرب إلى الله إلى وسيلةٍ للشعور بالتفوّق على الآخرين.

وهنا يتحوّل التدبّن من حالة روحية تبني الإنسان إلى حالة نفسية قد تُضعف أخلاقه وتشوّه علاقاته مع الناس، فالغرور الديني لا يضر بصاحبه فقط، بل ينعكس أثره على المجتمع، لأنّ الإنسان المتعالي باسم الدين قد ينفرّ الآخرين من القيم التي يحملها، ويحوّل الدين من رسالة رحمة إلى وسيلة حكم على الناس.

ولهذا حذّر القرآن الكريم من العجب والغرور، لأنّهما يفسدان العمل الصالح ويجعلان الإنسان ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى الآخرين بعين النقص.

منشأ الغرور الديني:

لا ينشأ الغرور الديني عادةً بصورة مفاجئة، بل يتكوّن تدريجيًا حين يضعف حضور المراقبة الداخلية في نفس الإنسان، فيبدأ بمقارنة نفسه بالآخرين، فقد يبدأ الإنسان عبادته أو طلبه للعلم بنية صادقة وقلب متوجّه إلى الله تعالى، ثم يتسلّل إلى قلبه شعور خفيّ بأنّه أكثر التزاماً من غيره، أو أنّه أقرب إلى التقوى منهم، ومع استمرار هذا الشعور يتحوّل التدبّر شيئاً فشيئاً من كونه وسيلة للتقرب إلى الله تعالى إلى وسيلة يقيس بها الإنسان مكانته بين الناس، فيرى نفسه متقدّماً عليهم، ويقع بذلك في آفة الغرور من حيث لا يشعر.

وقد عرض القرآن الكريم مثلاً واضحاً لهذا المرض في قصة إبليس مع آدم عليه السلام، فقد كان إبليس في زمرة العابدين، غير أنّ الغرور تسلّل إلى قلبه حين أمر بالسجود لآدم تكريماً له، فبدل أن يمثل لأمر الله تعالى نظر إلى نفسه بعين التعالي، وقارن بين أصله وأصل آدم، فقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (ص: ٧٦)، فجعل معيار التفاضل مادّة الخلق، لا طاعة الله والانقياد لأمره، فكان ذلك سبب سقوطه وابتعاده عن رحمة الله تعالى، وتكشف هذه الآية أنّ الجهل من أبرز مناشئ الغرور وأخطرها.

وقد نبّهت روايات أهل البيت عليه السلام إلى حقيقة هذا المرض وخطورته على العمل والنيّة.

فقد روى الكليني في الكافي عن عليّ بن سويد، عن أبي الحسن عليه السلام قال: سألته عن العُجب الذي يفسد العمل، فقال: «العُجب درجات منها أن يزيّن

الدرس السادس عشر: الحالة الدينية ومرض الغرور..... ١٥٧

للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنّ على الله ﷻ والله عليه فيه المنّ^(١).

وهذه الرواية تكشف البعد العملي لمرض الغرور؛ إذ قد يصل الإنسان إلى مرحلة يرى فيها خطأه صواباً، فيغترّ بعمله ويظنّ أنه يحسن صنعاً، أو يتوهم أنّ إيمانه وعبادته منّة منه على الله تعالى، مع أنّ الحقيقة أنّ كلّ توفيقٍ للطاعة إنّما هو فضلٌ من الله ورحمة منه بعباده.

ومن هنا كان الواجب على الإنسان أن يحفظ قلبه من هذا الشعور، وأن يتذكّر دائماً أنّ العمل مهما كثر لا يساوي شيئاً أمام نعم الله وفضله، وأن يبقى التدبُّن مقروناً بالتواضع والخشوع ومحاسبة النفس، حتّى لا يتحوّل العمل الصالح إلى سببٍ للغرور وفساد القلب.

ومن هنا نبّه أهل البيت ﺍﻟﻪﻳﻨﻪ إلى خطورة هذا المرض، فقد ورد عن الإمام الصادق ﺍﻟﻪﻳﻨﻪ قال: «من دخله العُجب هلك»^(٢).

ومن وصايا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﺍﻟﻪﻳﻨﻪ لابنه الإمام الحسن ﺍﻟﻪﻳﻨﻪ ما يكشف بوضوح عن خطورة الغرور وآثاره في شخصية الإنسان، إذ قال: «يا بني احفظ عني أربعاً وأربعاً، لا يضرّك ما عملت معهن: أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العُجب، وأكرم الحسب حسن الخلق»^(٣).

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣١٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) نهج البلاغة - خطب الإمام علي ﺍﻟﻪﻳﻨﻪ: ج ٤، ص ١١.

وتكشف هذه الوصية عن بُعد تربوي عميق، إذ يبين الإمام عليه السلام أنَّ العُجب من أشدَّ الآفات التي تُفسد حياة الإنسان؛ لأنَّه يقطع الصلة بينه وبين التواضع ومراجعة النفس.

فالمعجب بنفسه يرى أعماله عظيمة، ويغفل عن تقصيره، ويقارن نفسه بالآخرين بعين التعالي، فينشأ في داخله شعور خفي بالتفوق، فيفقد بذلك روح العبودية الصادقة لله تعالى.

وتظهر آثار الغرور الديني في السلوك العملي للإنسان؛ كأن يكثر من الحكم على الآخرين، أو يبالغ في إظهار عبادته، أو يتعامل مع الناس بشيء من التعالي لأنَّه يرى نفسه أكثر التزاماً منهم، وهذه المظاهر لا تعبّر عن حقيقة التدبُّن، لأنَّ الدين الحق يربِّي الإنسان على التواضع، ويجعله أقرب إلى الرحمة والرفق بالناس، لا إلى القسوة والتعالي عليهم.

وقد لخصَّ أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بكلمةً بليغة تُذكر الإنسان بحقيقته وضعفه، فقال: «ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة، وآخره جيفة، لا يرزق نفسه، ولا يدفع حتفه»^(١).

وهذا التذكير بحقيقة الإنسان يزرع في النفس حالة الاعتدال والتواضع؛ فكلَّما ازداد الإنسان عبادةً أو علماً ازداد شعوراً بضعفه وحاجته إلى رحمة الله تعالى، وأدرك أنَّ ما عنده من خير إنما هو بتوفيق الله وفضله.

ومن هنا فإنَّ العلاج العملي لمرض الغرور الديني يكون بالمداومة على محاسبة النفس، واستحضار التقصير، والتعامل مع الناس بروح الرحمة

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ١٠٤.

الدرس السادس عشر: الحالة الدينية ومرض الغرور..... ١٥٩

والتواضع، حتّى يبقى التدبُّن طريقاً صادقاً إلى الله تعالى، لا وسيلةً للتفاخر أو الشعور بالتفوّق على الآخرين.

آثار الغرور الديني على الفرد والمجتمع:

عندما يتسلّل الغرور إلى قلب الإنسان، تتغيّر نظرتّه إلى نفسه وإلى الآخرين، فيبدأ بمراقبة أخطاء الناس بدل إصلاح نفسه، ويشعر أنّه صاحب الحقّ المطلق، فيضعف استعدادّه لسماع النصيحة أو قبول النقد.

وهذا الأمر ينعكس على سلوكه اليومي، فيصبح كلامه قاسياً أحياناً، وتعاملاته جافة، لأنّه يتعامل مع الآخرين من موقع التفوّق لا من موقع الأخوة الإنسانية، ومع مرور الوقت قد يبتعد الناس عنه، لأنّهم لا يجدون في سلوكه الرحمة التي دعا إليها الدين.

أمّا على مستوى المجتمع: فإنّ الناس تنبذ المغرور؛ فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «ما من رجل تكبّر أو تجبرّ إلّا لذلة وجدّها في نفسه»^(١)، فإنّ الغرور الديني يخلق بيئةً من التوتر وسوء الفهم، لأنّ الناس يشعرون أنّ التدبُّن أصبح أداة للحكم عليهم لا وسيلة لإصلاحهم، وهنا قد يتحوّل بعض الناس إلى النفور من الخطاب الديني نفسه، لا لأنّهم يرفضون الدين، بل لأنّهم تأثّروا بسلوك المتعصّبين أو المتكبرّين باسمه.

وهكذا على المستوى النفسي: فقد ورد في غرر الحكم ودرر الكلم: «الدنيا حلم، والاعتزاز بها ندم»^(٢)، فهذا يبيّن أنّ الانغماس في الدنيا واعتبارها غايةً في

(١) الكافي - الشيخ الكليني: ج ٢، ص ٣١٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم - عبد الواحد الأمدي التميمي: ص ٧٤.

١٦٠ دروس في الأخلاق

ذاته يورث الندم ويشغل القلب عن السلوك القويم والتوجُّه إلى الحقِّ، ويكشف أثر الغرور النفسي على توازن الإنسان الداخلي.

التطبيق السلوكي العملي لمعالجة الغرور:

إنَّ معالجة الغرور الديني تبدأ بإحياء روح التواضع في النفس، وتعويدها على محاسبة الذات ومراجعة الأعمال باستمرار، فعلى الإنسان أن يستحضر دائماً أنَّ العبادة توفيقٌ من الله تعالى، وأنَّ العمل الصالح لا يكتمل إلا إذا اقترن بالإخلاص والتواضع، وإلا فقد يتحوَّل إلى سببٍ للعُجب والغرور بدل أن يكون وسيلةً للتقرب إلى الله.

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قوله: «من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن خاف أمن، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم»^(١).

فمحاسبة النفس تفتح للإنسان باب البصيرة، وتجعله يلتفت إلى تقصيره قبل أن يتفاقم، وتمنعه من الوقوع في آفة العجب والاعتزاز بالعمل؛ لأنَّ الإنسان كلّما راجع نفسه اكتشف جوانب النقص فيها، فيبقى في حالة سعيٍّ دائم للإصلاح.

ومن الممارسات العملية في هذا الباب أن يحرص الإنسان على إخفاء عباداته قدر الإمكان، وألا يُظهرها للناس إلا بمقدار ما تقتضيه الحاجة، حتَّى تبقى علاقته بالله خالصةً بعيدةً عن طلب المدح أو الإعجاب، كما ينبغي له أن

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٦٧، ص ٧٥.

الدرس السادس عشر: الحالة الدينية ومرض الغرور..... ١٦١

يتعامل مع الآخرين بلطفٍ واحترام، وأن يتذكَّر أنَّ لكلَّ إنسان ظروفه وتجربته الخاصة، فلا يتعجَّل في الحكم على الناس أو التقليل من شأنهم.

كما أنَّ التأمل في سيرة أهل البيت عليهم السلام يربِّي في النفس روح التواضع الحقيقي؛ فقد كانوا، مع عظيم منزلتهم عند الله، أقرب الناس إلى البسطاء والفقراء، فقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يجلس مع المساكين ويعاملهم معاملة الإخوة، ويؤكد بسلوكه أنَّ قيمة الإنسان ليست في مظهره أو منزلته الاجتماعية، بل في تقواه وإخلاصه لله تعالى.

وعندما يلتزم الإنسان بهذه الممارسات في حياته اليومية - من محاسبة النفس، وإخفاء العمل، والتواضع في التعامل مع الناس - يبتعد تدريجياً عن الغرور، ويصبح تدبُّنه مصدر رحمةٍ وطمأنينة للآخرين، لا سبباً للنفور أو التعالي، وبذلك يتحقَّق التوازن الأخلاقي الذي أراده الدين في بناء شخصية الإنسان المؤمن.

الخلاصة:

يتَّضح من ذلك أنَّ الحالة الدينية الحقيقية لا تُقاس بكثرة المظاهر أو العبادات الظاهرة، بل بمدى أثرها في تهذيب النفس وغرس التواضع في الإنسان، فكلَّمَا ازداد قُرباً من الله تعالى، ازداد شعوره بحاجته إليه، وزاد لطفه مع الناس واحترامه لهم، بعيداً عن التعالي أو الغرور.

ولذلك، على كلِّ مؤمن أن يراقب قلبه كما يراقب عمله، وأن يسأل نفسه باستمرار: هل يقودني تدبُّني إلى التواضع والرحمة، أم إلى الغرور والشعور بالتفوق على الآخرين؟ احذر من الانزلاق إلى العُجب أو التكبر، وتذكَّر أنَّ كلَّ

١٦٢ دروس في الأخلاق

فضل فيك من الله تعالى، وأنَّ العبادة وسيلة للقرب منه ﷻ لا لإظهار الذات أمام الناس.

واجعل لنفسك مداومة يومية على محاسبة الذات، وتذكر تقصيرك قبل أن يتفاقم، وعالج أي شعور بالتفوق بالتواضع والرفق بالآخرين، واحرص على أن تكون عباداتك خالصة لله، وتعاملاتك صادقة رحيمة، وأن تكون قدوة صالحة لا خوفاً أو رياءً، بل هداية ورحمة.

وبهذه المراجعة العملية المستمرة، يصبح تدينك نوراً يهديك وينير من حولك، ويجعل منك عنصراً فاعلاً في بناء مجتمع أخلاقي متوازن، يسوده الاحترام، والتراحم، والعدل، والصدق.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا التواضع والصدق في العبادة، ويبعد عنا الغرور والعُجب، ويجعل تديننا سبباً للهداية وخدمة الآخرين بالرحمة والعدل.

* * *

الدرس السابع عشر

الاغتراب النفسي - أزمة العصر

المقدمة:

الاغتراب النفسي أصبح من أبرز أزمات العصر الحديث، فهو حالة شعورية يعيشها الإنسان حين ينفصل عن ذاته الحقيقية، ويشعر بالغربة الداخلية حتّى في وسط الناس والمجتمع.

هذا الاغتراب لا يقتصر على الانعزال الجسدي، بل يمتد إلى فقدان الاتصال بالقيم الأخلاقية والروحية، فيغدو القلب مشغولاً بالقلق والتوتر، والعقل متشتتاً، والروح محرومة من الطمأنينة.

وقد يزداد الشعور بالفراغ الداخلي حين يضعف الإنسان مراقبته لنفسه، أو يغفل عن مسؤولياته تجاه الله والآخرين، فيقع فريسة للضغط النفسي واندفاع المشاعر السلبية.

وقد حذّر القرآن الكريم من هذه الحالة، مبيناً أثر الابتعاد عن الحق والفضيلة على توازن النفس، حين وصف الذين غفلوا عن أنفسهم وابتعدوا عن ذكر الله قتل تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ (الليل: ٥-٧)، فالارتباط بالحق والفضيلة والعمل الصالح يحوّل

النفس من الغربة الداخلية، ويملاها بالطمأنينة والسكينة، ويجعل الإنسان قادراً على مواجهة ضغوط الحياة بثقة واتزان.

ومن هذا المنطلق، يهدف هذا الدرس إلى توضيح منشأ الاغتراب النفسي وآثاره السلوكية، وتقديم خطوات عملية لمراجعة النفس وإعادة التوازن الروحي والعملي في حياة الفرد والمجتمع.

منشأ الاغتراب النفسي:

الاغتراب النفسي حالة تتكوّن تدريجياً في الإنسان، ولا يظهر فجأة، بل هو نتيجة تراكم عوامل نفسية وسلوكية واجتماعية متعدّدة، وغالباً ما يبدأ عندما يضعف الإنسان مراقبة نفسه ويغفل عن مراجعة قلبه ووعيه الداخلي، فيركّز على المظاهر الاجتماعية، ويهتم بمدح الآخرين وقبولهم بدل السعي للرضا الإلهي، ومع مرور الزمن، يعتاد على التظاهر بما لا يشعر به حقاً، ويقارن نفسه بالآخرين، فينشأ شعور دائم بالنقص أو التفاخر، ويغيب عنه معيار الحق في تقييم ذاته وأفعاله.

ومن أبرز مسببات الاغتراب النفسي البيئة المحيطة التي تكثر فيها الانتقادات أو الضغوط الاجتماعية، والمقارنة المستمرة مع الآخرين، أو تجاهل الدعم الروحي والنفسي من الأسرة والمجتمع.

غير أنّ السبب الأشد خطورة هو الانقطاع عن الله والانفصال عن المرجعية الإيمانية الصادقة، والتعاس عن المواظبة على الذكر والعبادة الخالصة، بحيث يصبح القلب بعيداً عن صلة الله ومفتقداً للسكينة، ومهما كانت العوامل

الدرس السابع عشر: الاغتراب النفسي - أزمة العصر ١٦٥

الأخرى، فإنَّ الغربة الحقيقية في النفس تبدأ بالبُعد عن الله، فالإنسان فطره على العبادة، فإذا ابتعد عن خالقه صار غريباً مع نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤)، فعندما يغفل الإنسان عن ذاته ومراقبة خالقه، يضعف توازن قلبه ويصبح فريسة للقلق المستمر والتوتر الداخلي، فتنشأ غربة النفس عن الذات وعن المحيط الاجتماعي، ويغيب الأمن الروحي والطمأنينة النفسية، وقد حذر أهل البيت (عليهم السلام) من هذه الغربة الحقيقية للقلب الذي ابتعد عن ذكر الله وارتبط بالهوى والشواغل الدنيوية.

إنَّ إدراك هذه الأسباب والسعي لمراجعة النفس ومحاسبتها يومياً، والمواظبة على العبادة والذكر الخالص، يمثل السبيل العملي للحماية من هذه الغربة النفسية، فمراجعة النفس تمنع الغفلة، وتعيد للإنسان توازنه الداخلي، وتمكّنه من التعامل مع ذاته والآخرين بانسجام ورحمة، بدل الشعور بالغربة والتشتت النفسي، فيصبح القلب مستقراً والنفس مطمئنة، وتتحقق بذلك البيئة الأخلاقية المتوازنة التي أرادها الدين للإنسان المؤمن.

آثار الاغتراب النفسي:

يخلّف الاغتراب النفسي آثاراً واضحة في سلوك الفرد ومسار حياته اليومية؛ إذ يضعف قدرته على التفاعل الإيجابي مع محيطه، فيغدو سريع الانفعال، كثير التوتر، مضطرب الحكم في مواقفه وقراراته، وتغلب عليه مخاوف الفشل والنقد.

كما يجدّ هذا الاغتراب من طاقته على التحلّي بالصبر والرحمة، فيميل إمّا إلى العزلة والانكفاء على الذات، وإمّا إلى الدخول في علاقات سطحية تفتقر إلى الصدق والعمق الإنساني.

وحين يتعد الإنسان عن ذكر الله وينقطع عن التواصل الروحي، تتولّد في داخله حالة من الفراغ والضياع؛ فمهما أشبع حاجاته الجسدية من طعام أو شهوة، سرعان ما يعود ليشعر بالغربة عن ذاته وعن محيطه، فلا يجد لحياته معنى يملؤها، وقد تفضي هذه الحالة في بعض الأحيان إلى اليأس الشديد، بل إلى الإقدام على الانتحار، كما يُلاحظ في بعض المجتمعات المتقدّمة، حيث تُسجّل فيها معدلات مرتفعة لهذه الظاهرة رغم ما بلغته من تقدّم علمي واجتماعي.

أمّا المؤمن، فإنّ تعمّق إيمانه يعزّز قوّته الداخلية ويقوّي صلته بالله تعالى؛ فكلّما ازداد رسوخاً في الإيمان ازداد شعوره بالطمأنينة والاستقرار، وتعلّق بالحقّ يشتدّ مع تقدّم العمر، ويتّضح هذا المعنى بوضوح في مشاهد الزيارة الأربعينية للإمام الحسين عليه السلام، حيث يُرى الرجال والنساء من كبار السنّ يسرون في طريق الزيارة بروح ملؤها الإيمان والسكينة، مستمدّين من هذه المسيرة معنى حياتهم في الطاعة والعمل الصالح والعبادة الخالصة.

ومن هنا تبرز الحاجة إلى معالجة هذه الغربة عبر ترسيخ الارتباط الحقيقي بالله تعالى، وتعميق القيم الإيماني والأخلاقية في حياة الإنسان؛ إذ إنّ المواظبة على العبادة الصادقة وإحياء البعد الإيماني تسهم في استعادة التوازن النفسي للفرد، وتدعم بناء مجتمع متماسك يقوم على الرحمة والعدل والتعاون بين أفراده.

سبل الوقاية والمعالجة العملية:

تبدأ الوقاية من الاغتراب النفسي ومعالجته بإحياء الصلة الحقيقية بالله تعالى؛ مهما كان نوع هذا الاغتراب، سواء كان في محيط الأسرة بين الإنسان وأبيه أو أمه، أو في علاقاته الاجتماعية، أو كان اغتراباً روحياً ناشئاً من ضعف البعد الإيماني.

فإنَّ القلب إذا فقد ارتباطه بالله وقع في الوحشة والاضطراب، مهما أحاطت به مظاهر الحياة المادية.

ومن هنا كانت الخطوة الأولى في طريق المعالجة هي مراجعة النفس ومحاسبتها باستمرار، وتأمّل حال القلب وسلوكه، والسعي إلى إصلاحه من خلال العبادة الصادقة، والمواظبة على الصلاة والذكر، والامتنال لأوامر الله تعالى بإخلاص.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)، دالاً على أنَّ الطمأنينة الحقيقية تنبع من حضور الله في حياة الإنسان.

كما يعين على الوقاية من هذه الغربة الروحية التأمل في سيرة أهل البيت عليهم السلام والافتداء بمنهجهم في التواضع والرحمة وحسن المعاشرة مع الناس؛ فإنَّ الافتداء بهم يربّي النفس على الصفاء والاعتدال ويعيد إليها توازنها الداخلي، ومن المهم كذلك أن يتحرّر الإنسان من أسر المقارنات الاجتماعية التي تزرع في النفس الشعور بالنقص أو التعالي، وأن يوجّه أعماله نحو الإخلاص لله تعالى بعيداً عن طلب المدح أو التظاهر أمام الناس، فإنَّ صفاء النية من أهم أسباب الاستقرار النفسي.

ويُضاف إلى ذلك تنمية القدرة على ضبط الانفعالات وإدارة النفس بالحكمة والصبر، لأنَّ كثيراً من مظاهر الاضطراب النفسي تنشأ من العجز عن التحكم في المشاعر وردود الأفعال، ومع المداومة على الذكر والعبادة وتهذيب النفس، يستعيد الإنسان تدريجياً شعوره بالسكينة والانتماء الروحي، فيتحوّل القلب من حالة القلق والاغتراب إلى حالة الطمأنينة والاستقرار.

وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا المعنى في دعائه في نهج البلاغة، حيث بيّن أن ذكر الله هو الأنس الحقيقي للقلوب في أوقات الغربة والشدائد، فقال عليه السلام: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَنْسُ الْإِنْسِينَ لِأَوْلِيائِكَ، وَأَخْضَرُهُمْ بِالْكَفَايَةِ لِلْمُتَوَكِّلِينَ عَلَيْكَ، تُشَاهِدُهُمْ فِي سَرَائِرِهِمْ وَتَطْلُعُ عَلَيْهِمْ فِي ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعْلَمُ مَبْلَغَ بَصَائِرِهِمْ، فَاسْرَأْرُهُمْ لَكَ مَكْشُوفَةٌ وَقُلُوبُهُمْ إِلَيْكَ مَلْهُوفَةٌ، إِنْ أَوْحَشَتْهُمْ الْغُرْبَةُ أَنْسَهُمْ ذِكْرَكَ، وَإِنْ صُبَّتْ عَلَيْهِمُ الْمَصَائِبُ لَجُّوا إِلَى الْإِسْتِجَارَةِ بِكَ، عِلْماً بِأَنَّ أَرْمَةَ الْأُمُورِ بِيَدِكَ، وَمَصَادِرُهَا عَنْ قَضَائِكَ، اللَّهُمَّ إِنْ فَهَيْتُ عَنْ مَسْأَلَتِي أَوْ عَمِيتُ عَنْ طَلْبَتِي فَدُلَّنِي عَلَى مَصَالِحِي، وَخُذْ بِقَلْبِي إِلَى مَرَاشِدِي، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِنُكْرٍ مِنْ هِدَايَاتِكَ، وَلَا بِيَدْعٍ مِنْ كِفَايَاتِكَ، اللَّهُمَّ احْمِلْنِي عَلَى عَفْوِكَ وَلَا تَحْمِلْنِي عَلَى عَذْلِكَ»^(١).

وهكذا يتبيّن أنّ معالجة الاغتراب النفسي لا تتحقّق بالعوامل المادية وحدها، بل تقوم أساساً على إعادة بناء العلاقة الروحية مع الله تعالى، وتهذيب النفس، وترسيخ القيم الإيمانية في حياة الفرد؛ الأمر الذي ينعكس بدوره على المجتمع، فيسهم في بناء بيئة إنسانية متماسكة تقوم على الطمأنينة والرحمة والتعاون بين أفرادها.

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٢، ص ٢٢١.

ومن التطبيقات العملية لذلك:

- ١ - المحاسبة اليومية للنفس: أن يخصص الإنسان وقتاً في نهاية يومه يراجع فيه أعماله وأقواله، فيشكر الله على التوفيق ويستغفره من التقصير.
 - ٢ - المداومة على الذكر والعبادة: كالمحافظة على الصلاة في أوقاتها، وقراءة شيء من القرآن، والإكثار من الأذكار التي تحيي القلب وتبعث الطمأنينة فيه.
 - ٣ - تعزيز العلاقات القائمة على الرحمة والصدق: بالسعي إلى إصلاح العلاقة مع الوالدين والأسرة والناس، والتعامل معهم بروح التواضع والاحترام، مما يخفف شعور العزلة ويقوّي الروابط الإنسانية.
 - ٤ - الاقتداء بسيرة أهل البيت عليهم السلام: بقراءة سيرتهم والتأمل في أخلاقهم العملية، ومحاولة تطبيق قيم الرحمة والتواضع والصبر في الحياة اليومية.
 - ٥ - الانشغال بالعمل الصالح النافع: لأنّ العمل الخالص لله تعالى يمنح الإنسان معنى حياته ويملاً فراغه الروحي، فيبتعد عن الشعور بالضيق والاعتراب.
- وبهذه الخطوات العملية يتحوّل الذكر والإيمان من مفاهيم نظرية إلى ممارسة يومية، تعيد للإنسان توازنه الداخلي وتجعله أكثر قدرة على مواجهة مظاهر الاغتراب في حياته.

الخلاصة:

يتبيّن من خلال ما تقدّم أنّ الاغتراب النفسي ليس حالةً شعورية عابرة، بل هو أزمةٌ روحية قد تُفْضي - إذا استمرّت ولم تُعالج - إلى اختلال توازن الإنسان واضطراب علاقته بنفسه وبالأخرين، ومن ثمّ إلى إضعاف البناء الأخلاقي

١٧٠ دروس في الأخلاق

للمجتمع، ومن هنا تبرز أهمية يقظة الإنسان لنفسه، ومراقبته الدائمة لقلبه وعمله، عبر مراجعة النفس ومحاسبتها، والحرص على دوام الصلة بالله تعالى من خلال الذكر والطاعة والإخلاص في العبادة، مقرونًا بالتواضع وحسن المعاشرة مع الناس.

فإذا التزم الإنسان بهذه الممارسات التربوية، تحوّل التدبُّن في حياته إلى مصدر طمأنينة واستقرارٍ روحي، لا مجرد مظهرٍ خارجي، واستطاع أن يحفظ توازنه الداخلي، ويصون نفسه من الاضطراب والفراغ، وبهذا تتكوّن شخصيّة متوازنة قادرة على الإسهام في بناء مجتمعٍ أخلاقي متماسك، تسوده الرحمة والتعاون وترسخ فيه القيم الإيمانية.

ومع ما قد يواجهه الإنسان من مشاعر الغربة أو الضيق في بعض مراحل حياته، فلا تيأس أبداً؛ فإنّ الإيثار بالله تعالى يمنحه الأمل ويمنعه من الوقوع في اليأس، إذ إنّ التقوى والصدق مع الله يفتحان أبواب الفرج واليسر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بِالْعُمْرَةِ الْقُدْرَةِ لَكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢-٣).

وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٥-٧)، وعلى هذا الأساس، فإنّ الطريق الحقيقي لمعالجة الاعتراّب النفسي إنّما يكمن في إعادة بناء العلاقة بالله تعالى، وتهذيب النفس، وترسيخ القيم الإيمانية في السلوك اليومي؛ إذ تتحقّق بذلك الطمأنينة في قلب

الدرس السابع عشر: الاغتراب النفسي - أزمة العصر ١٧١

الفرد، وينعكس أثرها على المجتمع بأسره، فينشأ مجتمعٌ يسوده الأمن الروحي والتكافل الإنساني، وتبقى فيه القيم الإلهية حيّة فاعلة في حياة الناس.
أسأل الله تعالى أن يرزقنا الطمأنينة بذكره، ويجنبنا الغربة والاضطراب، ويوفقنا لما فيه صلاح النفس والدين.

* * *

الدرس الثامن عشر

المثالية فكرة حاضرة في الأذهان، غائبة عن الواقع

المقدمة:

يميل الإنسان بطبيعته إلى التفكير بالمثل العليا، فيتحدث عن الصدق الكامل، والعدل التام، والتدين الصافي، ويرسم في ذهنه صورة مثالية للحياة والسلوك، غير أنَّ المشكلة لا تكمن في وجود هذه الفكرة في الذهن، فإنَّ السعي إلى الكمال من الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها، وإنَّما تكمن المشكلة حين تبقى المثالية مجرد فكرة تُتداول في الكلام ولا تتحوَّل إلى سعي عملي في الواقع، فتصبح حاضرة في الأذهان وغائبة عن السلوك والعمل.

وقد نبَّه القرآن الكريم إلى أنَّ قيمة الإنسان لا تُقاس بما يتمنَّاه أو يتصوَّره، بل بما يسعى إليه ويعمل له، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٩)، فالسعي هو الميزان الحقيقي لتحقيق القيم في حياة الإنسان، أمَّا الاكتفاء بالكلام عن الكمال من غير عملٍ ومجاهدة للنفس فإنَّه يتحوَّل إلى صورة من صور التقاعس وخداع النفس.

منشأ بقاء المثالية في الذهن دون الواقع:

تنشأ هذه الحالة عندما يكتفي الإنسان بتصوُّر الخير والحديث عنه دون أن يكلف نفسه مشقة السعي إليه، فقد يتحدث الإنسان كثيراً عن ضرورة الالتزام

بالأخلاق، أو عن أهمية التقوى والإصلاح، لكنه لا يبذل الجهد الكافي في تهذيب نفسه، فيبقى الفرق واسعاً بين ما يؤمن به في فكره وبين ما يعيشه في واقعه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى خطورة هذا التناقض بين القول والعمل بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣)، فالكلمة إذا لم تتحول إلى عمل تفقد أثرها وقيمتها.

كما أن من أسباب بقاء المثالية في الذهن حب الراحة والابتعاد عن مجاهدة النفس، لأن العمل الحقيقي يحتاج إلى صبرٍ وتحملٍ للمشقة.

آثار المثالية غير العملية في حياة الإنسان:

عندما تتحول المثالية إلى مجرد فكرة ذهنية لا يصاحبها سعي عملي، فإنها قد تقود الإنسان إلى حالة من التناقض بين ما يعلنه من مبادئ وما يطبقه في واقعه، فيضعف صدقه مع نفسه، ويعتاد الاكتفاء بالشعارات والكلمات بدل العمل الحقيقي.

ومع مرور الزمن يتكوّن نوع من خداع النفس؛ إذ يظن الإنسان أنه قريب من الكمال لمجرد حديثه عن الفضيلة، مع أن الكمال إنما يتحقق بالسعي والعمل ومجاهدة النفس.

وقد حذّر أمير المؤمنين عليه السلام من هذه الحالة حين قال في موعظته المعروفة: «لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ، وَيُرْجَى التَّوْبَةُ بِطُولِ الْأَمَلِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا يَقُولُ الزَّاهِدِينَ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاعِيَيْنِ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا لَمْ يَشْبَعْ وَإِنْ

الدرس الثامن عشر: المثالية فكرة حاضرة في الأذهان، غائبة عن الواقع ١٧٥

مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ، يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي وَيَأْمُرُ بِمَا لَا يَأْتِي، يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ^(١)، وهذه الكلمات تكشف أن الرجاء الصادق لا ينفصل عن العمل، وأن الاكتفاء بالأقوال دون التطبيق يوقع الإنسان في التناقض والضعف.

كما أن الإنسان إذا اعتاد الحديث عن القيم دون تحويلها إلى سلوك عملي قد يقع في وهم نفسي، فيتوهم أنه يسير نحو الكمال لمجرد تفكيره فيه أو حديثه عنه، بينما يؤكد القرآن الكريم أن الإيمان الحقيقي لا ينفصل عن العمل الصالح، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ (الرعد: ٢٩)، فجعل العمل الصالح قرين الإيمان ودليلاً على صدقه.

وتظهر آثار هذه الحالة في المجتمع أيضاً؛ إذ قد تكثر الكلمات عن الإصلاح والقيم والأخلاق، لكن يقلّ التطبيق العملي لها، فتضعف القيم في الواقع الاجتماعي؛ لأنّ المبادئ لا تحفظها الأقوال وحدها، بل يحفظها السلوك العملي الذي يجسدها في حياة الناس، ومن هنا فإن صدق الإنسان مع نفسه، وسعيه لتحويل ما يؤمن به من أفكار إلى عمل واقعي، هو الطريق الصحيح الذي يربط بين الفكر والعمل، ويجعل القيم حية فاعلة في حياة الفرد والمجتمع.

المنهج الصحيح في التعامل مع المثالية:

إنّ الطريق الصحيح لا يقوم على إلغاء المثالية، بل على تحويلها من فكرة في الذهن إلى سعي عملي في الحياة، فالمثل العليا ينبغي أن تكون أهدافاً يسعى الإنسان لتحقيقها، لا مجرد تصوّرات يكتفي بالتفكير فيها.

(١) شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد: ج ١٨، ص ٣٥٦.

ولهذا يدعو الإسلام إلى مجاهدة النفس والعمل التدريجي في طريق الإصلاح، لأنَّ الكمال لا يتحقق دفعة واحدة، وإنما يتحقق عبر مسيرة من السعي والصبر.

وقد عبّر أمير المؤمنين عليه السلام عن هذا المعنى بقوله: «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه»^(١)، لأنَّ مجاهدة النفس هي الطريق الحقيقي لترسيخ القيم، كما أنَّ الإنسان إذا بدأ بخطوات صغيرة صادقة في إصلاح نفسه فإنَّ الله يعينه ويوفقه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد صلَّى الله عليه وآله: ١٧).

تطبيقات عملية لتحويل المثالية إلى واقع:

أولاً: على الإنسان أن يبدأ بمراجعة نفسه بصدق كل يوم، ويتساءل: هل ما أفعله يعكس ما أؤمن به من قيم ومبادئ؟ فهذه المراقبة اليومية تساعد على تحديد نقاط القصور ومعالجتها تدريجياً، وتمنعه من الانشغال بالكلام عن المثل العليا دون تطبيقها.

ثانياً: ينبغي للإنسان أن يضع أهدافاً عملية صغيرة قابلة للتحقيق في حياته اليومية، مثل الالتزام بأداء العبادة في وقتها بإخلاص، ومراعاة حقوق الآخرين في المنزل أو العمل، والحرص على قول الحقيقة والوفاء بالوعد، فهذه الخطوات الصغيرة تجسّد المثل العليا على أرض الواقع.

ثالثاً، من المناسب أن يقوم الإنسان بتسجيل إنجازاته اليومية، ولو كانت بسيطة، وأن يلاحظ التقدم التدريجي في تهذيب نفسه وتحسين سلوكه؛ فإنَّ ذلك

(١) نهج البلاغة - خطب الإمام علي عليه السلام: ج ٤، ص ٥٤.

الدرس الثامن عشر: المثالية فكرة حاضرة في الأذهان، غائبة عن الواقع ١٧٧
يمنحه دافعاً للاستمرار في السعي العملي، ويُبعده عن الاكتفاء بالتصورات
الذهنية دون تطبيق في الواقع.

رابعاً: الانخراط في أنشطة جماعية تتطلب التزاماً بالقيم والمبادئ، كالعمل
الخيري أو خدمة المجتمع، إذ تساعد هذه التجارب العملية على اختبار المثل
العليا في الواقع، وتزيد من صقل الشخصية وتنمية قدرة الإنسان على تحويل
الفكر إلى فعل.

خامساً: التأمل المستمر في سيرة أهل البيت عليهم السلام والاقتداء بهم في الصبر،
والمثابرة، والتواضع، والرحمة، يجعل الإنسان يرى المثل العليا وقد تحققت على
أرض الواقع، ويحفّزه على أن يسعى لتطبيقها في حياته الخاصة والاجتماعية.

الخلاصة:

إنَّ المثالية ليست فكرة ذهنية تُداول في الأذهان فحسب، بل هي منهجٌ
عملي يقتضي السعي الدائم لتجسيد القيم العليا في واقع الحياة، فالفكرة إذا لم
تتحوّل إلى عملٍ تبقى مجرد تصوّر لا يترك أثراً حقيقياً في سلوك الإنسان، بل قد
تقوده إلى التواكل والاكتفاء بالأمانى دون سعيٍّ جادٍ لتحقيقها.

ومن هنا تبرز أهمية التدرّج في العمل، والمواظبة على التطبيق العملي للقيم
التي يؤمن بها الإنسان؛ لأنَّ الممارسة المستمرة هي التي تحوّل المبادئ إلى واقعٍ
حيٍّ، وتحفظ الإنسان من التناقض بين ما يعتقد وما يعيشه في حياته اليومية.

وإذا حافظ الإنسان على مراقبة نفسه، والتزم بالصدق مع الله ومع ذاته،
وابتعد عن الاكتفاء بالكلام دون الفعل، فإنَّ هذه الروح العملية تمنحه توازناً

١٧٨ دروس في الأخلاق

داخلياً، وتنعكس إيجاباً على علاقاته مع الآخرين، فيسهم بذلك في بناء مجتمع يقوم على الصدق والعمل والقيم الأخلاقية الراسخة.

وعلى هذا الأساس، فإنَّ المثالية الحقيقية تبدأ من صفاء القلب وصدق النية، ثم تنمو بالسعي والعمل الصالح، حتَّى يتحوَّل الفكر إلى واقع، وتصبح القيم الإيمانية حاضرةً في حياة الإنسان وسلوكه، فيسير في طريق الحق والعدل بروح واعية ومسؤولة.

* * *

الدرس التاسع عشر

ظاهرة النفاق الديني بين العوامل والآثار

المقدمة:

إنَّ النفاق الديني يُعدّ من أخطر الآفات التي تهدّد صدق الإيمان واستقامة السلوك، إذ يظهر الإنسان بمظهر الورع والتقوى، بينما يغفل قلبه عن جوهر القيم الإلهية، فينشأ بذلك تباين واضح بين القول والفعل، ويعاني من اضطراب داخلي وفقدان الطمأنينة فلا يعرف راحة القلب ولا سكينة النفس. ومن هنا، ينبغي لكلّ مؤمن أن يراقب قلبه وأفعاله يومياً، ويسأل نفسه بصدق: هل تدبّرني نابع من محبة الله وطلب رضاه، أم مجرد مظهر أمام الناس؟ فمراجعة النفس الصادقة ومحاسبتها بلا هوادة تقي الإنسان من الانخداع بنفسه، وتبعده عن المظاهر الكاذبة، وتقوده إلى الثبات على الحق والصدق الداخلي، وتحفظ له توازن حياته الروحي والنفسي.

إنَّ الوقاية من النفاق تبدأ بوعي القلب، ومحاسبة الذات، ومراجعة الدوافع الخفية وراء العمل، فإن كانت النية خالصة لله، صارت الأعمال نوراً للقلوب وراحة للنفوس، وإن كانت غريبة عن الله، تبقى الشعارات بلا أثر، ويصبح القلب معرضاً للفراغ الإيماني والانحراف عن صراط الحق.

وقد نبّه القرآن الكريم إلى هذا الخطر فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣)، مؤكّداً أنّ مجرد التظاهر بالدين دون الالتزام الحقيقي يجبر على النفس الضلال والاضطراب ويضعف أثر القيم في الحياة العملية.

وأهل البيت عليهم السلام يبيّنون هذه الحقيقة ويشدّدون على خطرها، فقد روي عن الإمام علي عليه السلام قال: «أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم يعمل بها، ونهى عن المعصية ولم يتنه عنها»، وقال عليه السلام: «أشدّ الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم يعمل بها، ونهى عن المعصية ولم يتنه عنها»^(١)، فيبيّن عليه السلام أنّ مخالفة القول بالفعل هي من أشدّ صور النفاق، لأنّ ذلك يجعل الإنسان موقفه تجاه الطاعة والمعصية خالياً من الثبات والصدق الحقيقي.

وأكد رسول الله صلى الله عليه وآله على هذا المعنى فقال: «إني لا أخوّف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً، أمّا المؤمن فيحجره إيمانه، وأمّا المشرك فيقمعه كفره، ولكن أخوّف عليكم منافقاً عالم اللسان، يقول ما تعرفون، ويعمل ما تنكرون»^(٢)، فيبيّن صلى الله عليه وآله أنّ أخطر ما يخاف على الأمة من الناس هو من تبدو منه أقوال عاملة وتنكر أفعاله شرعية، لأنّ هذا السلوك يمسّ جوهر الصدق مع الله ومع الناس.

وقال صلى الله عليه وآله أيضاً: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم بعدي كلّ منافق عليم اللسان»، فيؤكّد أنّ الخطر الحقيقي لا يكون في جهل الإنسان ولا في كفره، بل في من يعرف الحق بالكلام ولا يعمل به في القلب والسلوك.

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٤، ص ٥٨٩.

(٢) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ٤، ص ٥٨٩.

الدرس التاسع عشر: ظاهرة النفاق الديني بين العوامل والآثار ١٨١

ومن هذا المنطلق، يصبح من الواجب على كل مؤمن أن يتعرّف إلى أسباب النفاق الديني، وأن يعي انعكاساته على الفرد والمجتمع، وأن يسعى لتقوية روحه بالعبادة الصادقة والذكر المستمر، وتهذيب النفس والتحلي بالصدق في القول والعمل، ليظل ملتزماً بالقيم الإيمانية، مطمئن القلب، مستقيم السلوك، وفاعلاً أثره في محيطه الاجتماعي.

فالدرس هنا ليس مجرد معرفة نظرية، بل هو دعوة صريحة للتطبيق العملي والمحاسبة اليومية التي تحفظ الإنسان من خداع الداخل، وتجعل منه نموذجاً حياً للأخلاق الإسلامية الراقية.

العوامل المؤدية إلى النفاق الديني:

ينشأ النفاق الديني من ضعف الصدق الداخلي والإخلاص في العلاقة مع الله تعالى، فتتحول العبادة إلى مجرد مظهر أمام الناس أو وسيلة للرياء، ومن الضروري أن يراجع الإنسان نفسه يومياً، ويتأمل أفعاله بصدق، ليعلم هل هي خالصة لله أم لأجل مدح الناس وإرضائهم، فالحرص المفرط على نظرة الآخرين والمديح الاجتماعي من أبرز أسباب النفاق، إذ يجتهد الإنسان في إظهار نفسه صالحاً بين الناس، بينما يغفل عن تهذيب نفسه في الخلوات والسرائر.

ومن العوامل الأخرى غفلة الإنسان عن محاسبة نفسه، فتقوده السهو وعدم المتابعة الدقيقة لتوافق القول والفعل إلى التظاهر، ويعتاد قلبه على خداع الذات، حتى يظن أنه ملتزم بالدين وهو في الواقع بعيد عن جوهره.

وللتغلب على هذا الخطر، يجب على المؤمن أن يلتزم بمراجعة يومية لأقواله وأفعاله، وأن يعالج أي تناقض يظهر فيه، مستعيناً بالإخلاص لله وحده، محافظة على ثبات قلبه وسلامة سلوكه، بعيداً عن المظاهر والكلام الفارغ.

آثار النفاق الديني على الفرد والمجتمع:

يترك النفاق آثاراً بالغة على الفرد، إذ يعيش اضطراباً داخلياً مستمراً نتيجة التناقض بين ظاهره وباطنه، فيفقد صفاء قلبه وطمأنينة نفسه، ويضعف تأثير القيم الدينية في سلوكه اليومي.

وقد وصف الله تعالى حال المنافقين في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالاً يُرَآؤْنَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مَذْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۖ﴾ (النساء: ١٤٢-١٤٣)، فتبين الآية التردد وعدم الاستقرار النفسي الذي ينشأ عن التظاهر والدجل الذاتي، وما يترتب عليه من فقدان الثقة بالنفس والاضطراب الروحي.

وعلى الصعيد الاجتماعي، يضعف النفاق الثقة بين الناس ويشيع الشكوك حول القيم والمبادئ، فتتعرض المجتمعات للفراغ الروحي والانحراف الأخلاقي، ويضعف التعاون البناء بين الأفراد.

ومن هنا، يصبح التزام الإنسان بالصدق مع الله ومع نفسه، ومحاسبة قلبه وأفعاله باستمرار، أساساً للحفاظ على تماسك المجتمع، إذ إن الفرد الصادق هو الركيزة التي تُرسخ الأخلاق في المجتمع وتحميه من الانحراف والانفلات القيمي.

سبل الوقاية والمعالجة العملية:

إنَّ الوقاية من ظاهرة النفاق الديني ومعالجتها تبدأ بإحياء روح الإخلاص في علاقة الإنسان برَّبِّه، بحيث يكون العمل موجَّهاً لطلب رضا الله تعالى لا لابتغاء ثناء الناس ومدحهم، فالإخلاص هو الأساس الذي يقوم عليه صلاح القلب واستقامة السلوك، وبه يكتسب العمل قيمته الحقيقية عند الله تعالى.^(١) وقد أكَّد أهل البيت عليه السلام هذه الحقيقة، فروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال: «طوبى لمن أخلص لله عمله وعلمه، وحبَّه وبغضه، وأخذه وتركه، وكلامه وصمته، وفعله وقوله»^(٢).

وروي عنه أيضاً: «طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطي غيره»^(٣). كما أنَّ التواضع وترك التظاهر من أهم العوامل التي تصون الإنسان من الوقوع في النفاق؛ فإنَّ الإفراط في إظهار الصلاح من غير أن يستند عمل صادق يفضي تدريجاً إلى اعتياد الرياء، ويغرس في النفس حالة الازدواج بين الظاهر والباطن، ومن هنا كانت سيرة أهل البيت عليه السلام مدرسةً عملية في تهذيب النفس وضبط السلوك، إذ جسَّدوا أسْمى معاني الصدق والإخلاص في القول والعمل، فكان الاقتداء بهم طريقاً إلى صفاء القلب واستقامة العمل.

وتكشف هذه المعاني عن حقيقة المجاهدة الداخلية للنفس؛ فإنَّ الإنسان قد يواجه في مسيرته أنواعاً من الابتلاءات والفتن، وهذا في حدِّ ذاته ليس نقصاً فيه،

(١) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ١، ص ٧٥٥.

(٢) ميزان الحكمة - محمد الريشهري: ج ١، ص ٧٥٥.

لأنَّ طبيعة البشر تقتضي أن يكونوا في معرض الخطأ والامتحان، وإنَّها المذموم هو الاستسلام لهذه الانحرافات وترك مجاهدة النفس في إصلاحها.

ولهذا قرَّر القرآن الكريم مبدأ الإصلاح الداخلي أساساً لكلِّ تغيير حقيقي، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١)، مبيناً أنَّ صلاح المجتمع يبدأ من صلاح الفرد، وأنَّ تهذيب النفس ومراقبتها هو الطريق الأوثق للثبات على الصدق والإخلاص.

ومن المهم كذلك أن يلتفت الإنسان إلى أنَّ النفاق قد يظهر في صور اجتماعية خفية، كالتظاهر بالصلاح أو استعمال الدين وسيلةً لتحقيق المصالح الشخصية، وقد يكون الإنسان ظاهراً في عبادته شديد الخشوع، وربما تجري دموعه في الصلاة، ولكن قلبه خالٍ من الإخلاص، والتاريخ مليء بالشواهد التي تكشف هذه الحقيقة؛ فقد كان عبد الرحمن بن ملجم يقرأ القرآن بصوت حسن حتَّى أعجب به بعض الناس، ومع ذلك انتهى به الأمر إلى ارتكاب أعظم جريمة حين اغتال أمير المؤمنين عليه السلام، ومن هنا كان الأئمة عليهم السلام يحذِّرون من الاغترار بالمظاهر دون النظر إلى حقيقة السلوك.

وعليه، فإنَّ الطريق إلى النجاة من هذه الآفة يمرّ عبر الصراحة مع النفس ومحاسبتها، وأن يعرض الإنسان نفسه دائماً على الموازين القرآنية ليرى مقدار التزامه بها، فإذا اكتشف في نفسه شيئاً من مظاهر النفاق بادر إلى معالجته في بداياته قبل أن يترسَّخ ويصعب اقتلاعه.

وبهذا الأسلوب يستطيع المؤمن أن يطهّر قلبه من شوائب الرياء، وأن يسير في طريق الإيمان الصادق الذي ينسجم فيه القول مع العمل، والظاهر مع الباطن.

الدرس التاسع عشر: ظاهرة النفاق الديني بين العوامل والآثار ١٨٥

تطبيقات عملية للتخلص من النفاق:

- ١ - تصحيح النية قبل الإقدام على أي عمل، وجعل الغاية منه طلب رضا الله تعالى دون الالتفات إلى مدح الناس أو ثنائهم.
- ٢ - المواظبة على محاسبة النفس بصورة مستمرة، من خلال مراجعة الأقوال والأفعال وملاحظة مدى التوافق بين الظاهر والباطن.
- ٣ - الحرص على انسجام السلوك مع القول، والابتعاد عن إظهار ما لا يلتزم به الإنسان في واقعه العملي.
- ٤ - الإكثار من ذكر الله تعالى واستحضار مراقبته في السر والعلن، لأنَّ استشعار الرقابة الإلهية يعين على تهذيب النية وتقويم العمل.
- ٥ - اجتناب التكلف في إظهار الصلاح أو المبالغة في إظهار التدين أمام الآخرين، لما في ذلك من فتح باب الرياء والتظاهر.
- ٦ - مجاهدة النفس عند ظهور بوادر التناقض بين الادعاء والعمل، والمسارة إلى معالجته بالتوبة الصادقة والعمل الصالح.
- ٧ - الاقتداء بسيرة أهل البيت عليهم السلام في الصدق والإخلاص، إذ يمثلون النموذج الأكمل في مطابقة القول للفعال.
- ٨ - مصاحبة أهل الصلاح واختيار البيئة الإيمانية التي تعين الإنسان على الاستقامة وتثبتته على طريق الحق.

الخلاصة:

يتضح أنَّ النفاق الديني يشكّل انحرافاً أخلاقياً ذا أثر بالغ، يؤثر في علاقة الإنسان بربه، ويحدث خللاً بين القول والفعل، مما ينعكس سلباً على المجتمع وثقة أفراد.

١٨٦ دروس في الأخلاق

ومن هنا، تكمن معالجته في ترسيخ الصدق مع الله، ومحاسبة النفس باستمرار، والمواظبة على العمل الصالح خالصاً لوجهه، والابتعاد عن مظاهر التظاهر التي تفسد صفاء النية.

وعندما يستقرّ هذا في النفس، يتحقّق التوازن الداخلي والطمأنينة الروحية، وينعكس أثره على المحيط الاجتماعي، فتترسّخ القيم الإيمانية، ويقوم المجتمع على دعائم الصدق والرحمة والعمل الصالح، مما يعزّز الثقة والتكافل ويقوّي بنيانه الأخلاقي.

أسأل الله أن يثبت قلوبنا على الصدق والإخلاص، وأن يعيننا على محاسبة أنفسنا والعمل لوجهه الكريم، بحق محمد وآل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

* * *

الدرس العشرون

مرض الازدواجية الشخصية بين الأسباب والعلاج

المقدمة:

إنَّ النفس الإنسانية من أعظم ما خلق الله تعالى، وقد جعل الإسلام حفظ توازنها وسلامتها من المقاصد الأساسية في حياة الإنسان؛ لأنَّ اضطراب النفس يؤدِّي إلى اختلال السلوك، واستقامتها تعني استقامة الحياة وسلامة المعاملات، ومن الاضطرابات التي قد تصيب النفس ما يُعرف باضطراب الهوية التفارقي أو ازدواجية الشخصية، حيث يعاني الإنسان فيه انقساماً داخلياً في هويته وسلوكه، غالباً نتيجة صدمات نفسية أو ضغوط شديدة مرَّ بها الفرد في مراحل مبكرة من حياته، ولا سيما في الطفولة.

ومن هنا تتَّضح مسؤولية الإنسان والأسرة والمجتمع في صون النفس وحمايتها من الانكسار والاضطراب، والسعي الجاد لبناء شخصية متوازنة قادرة على مواجهة الأزمات بثبات وصبر، وفي هذا الدرس نسلِّط الضوء على أسباب هذا الاضطراب النفسي، ونستعرض مشاكله العملية والسلوكية، ونبحث سبل العلاج والوقاية العملية التي تمكِّن الإنسان من استعادة توازنه النفسي والروحي، وتحقيق الانسجام بين قوله وعمله، وبين ذاته ومجتمعه، وذلك من خلال عدَّة محاور متتابعة ومتسلسلة.

المحور الأول: الوقاية من أسباب الاضطراب:

تشير الدراسات النفسية إلى أنَّ أغلب حالات اضطراب تعدُّ الشخصية ترتبط بصدمات نفسية شديدة، خاصة في مرحلة الطفولة، كالعنف الجسدي أو الإهمال العاطفي أو الاعتداء أو فقدان الأمان الأسري. ولهذا فإنَّ الوقاية من هذه الحالة تبدأ من التربية السليمة وبناء بيئة نفسية مستقرة للطفل، ومن أهم الوسائل العملية لتحقيق ذلك ما يأتي:

أ. توفير الأمان النفسي للأطفال:

فالطفل يحتاج إلى الشعور بالطمأنينة والقبول داخل أسرته، لأنَّ الأسرة هي البيئة الأولى التي تتكوَّن فيها شخصيته، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (النحل: ٨٠).

فالبيت ينبغي أن يكون موضع سكون وراحة لا مصدر خوف واضطراب.

ب. الابتعاد عن العنف في التربية:

إنَّ استخدام العنف في تربية الطفل يولّد الخوف والاضطراب في نفسه، ويترك آثاراً نفسية عميقة قد تمتد معه إلى مراحل حياته المختلفة، فتؤثّر في تكوين شخصيته واستقراره النفسي.

ومن هنا جاءت دعوة الإسلام إلى الرفق واللين في التعامل، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ»^(١)، فالطفل يحتاج إلى بيئة حاضنة بالأمان والطمأنينة، تعينه على تكوين هويّته المتّزنة، وتزرع فيه الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة الضغوط بثبات وصبر.

(١) بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج ٧٢، ص ٥٦.

ج. الاهتمام بالمشاعر النفسية للأبناء:

فالطفل الذي يشعر بالإهمال أو القسوة قد يلجأ إلى الانطواء أو الهروب النفسي من الواقع، لذلك ينبغي للوالدين الاستماع إلى أبنائهم ومراعاة احتياجاتهم العاطفية.

د. تجنب التناقض في التعامل مع الأبناء:

فإنَّ التقلُّب الشديد في أساليب التربية بين القسوة واللين المفرط يؤدي إلى اضطراب في بناء شخصية الطفل، ويزرع في نفسه شعوراً بعدم الاستقرار والارتباك، مما يعوّق تكوين هويته النفسية المتماسكة ويزيد من احتمالية ظهور صعوبات سلوكية أو اضطرابات داخلية فيما بعد في حياته، ومن ثم فإنَّ الموازنة بين الحزم والرفق في التربية تعدّ أمراً جوهرياً لتحقيق النمو النفسي السليم.

المحور الثاني: ملاحظة العلامات المبكرة للاضطراب:

من الأمور المهمّة في التعامل مع الاضطرابات النفسية الانتباه إلى العلامات المبكرة التي قد تظهر على بعض الأفراد، لأنَّ اكتشاف المشكلة في بدايتها يسهم كثيراً في علاجها.

ومن أبرز هذه العلامات ما يأتي:

- ١ - التغيُّر المفاجئ في السلوك أو في طريقة التعامل مع الآخرين.
- ٢ - الشعور بالانفصال عن الذات وكأنَّ الشخص يراقب نفسه من الخارج.

٣ - وجود فجوات في الذاكرة أو نسيان أحداث مهمة من الحياة اليومية.

٤ - التقلُّبات الحادة في الآراء أو الميول أو المشاعر.

٥ - الإحساس بعدم السيطرة على بعض التصرفات.

وعند ملاحظة مثل هذه الدلائل، يجب التعامل معها بوعي وروية، والحرص على عدم إهمالها أو التقليل من شأنها، وابتداءً العلاج بالخطوات العملية المناسبة، سواء من خلال الدعم الأسري والتوجيه التربوي أو اللجوء إلى المختصين عند الحاجة، بما يضمن إعادة التوازن النفسي واستقرار الشخصية في مراحل مبكرة، ويجعل الفرد قادراً على مواجهة التحديات بثبات وصبر.

المحور الثالث: خطوات عملية للتعامل مع الحالة:

عند ملاحظة علامات اضطراب نفسي واضحة، يجب على الإنسان والأسرة اتباع خطوات عملية تساعد على التخفيف من الحالة ومعالجة آثارها، بما يضمن استعادة التوازن النفسي والروحي.

أ. طلب المساعدة المختصة:

فلا يجوز إهمال هذه الاضطرابات أو التعامل معها بالإنكار أو التهوين، بل ينبغي مراجعة المختصين في العلاج النفسي والتربوي، إذ إن التشخيص الدقيق هو أولى خطوات العلاج الناجح، ويمكن المريض من مواجهة الصعوبات بسلاسة أكبر.

ب. توفير الدعم الأسري:

يحتاج المصاب إلى بيئة أسرية داعمة يشعر فيها بالأمان والقبول، بعيداً عن السخرية أو اللوم أو الاتهام، فالدعم النفسي من الأسرة يخفف من آثار الصدمات ويعزز الثقة بالنفس.

ج. تنظيم الحياة اليومية:

يساهم تنظيم أوقات النوم والعمل والراحة والأنشطة الاجتماعية في تحقيق قدر أكبر من الاستقرار النفسي، إذ يساعد الروتين المنتظم على ضبط الانفعالات والحد من الفوضى الداخلية، ويمنح الشخص إحساساً بالسيطرة على حياته وسلوكه.

د. تقوية الجانب الإيماني:

إنَّ أسمى وسائل تهدئة النفس وتقوية القلوب في مواجهة الضغوط النفسية هو التقرب إلى الله تعالى والتمسك بالقرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢).

كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨).

فالقرآن شفاء للنفس، والذكر والدعاء والعبادة اليومية وسيلة لإعادة التوازن الداخلي، ومنح الإنسان الطمأنينة والسكينة، ويزيد من قدرته على مواجهة الأزمات بثبات وصبر، ويعزز الانسجام بين النفس والسلوك اليومي، بحيث يصبح الإنسان قادراً على ضبط مشاعره وتصرفاته بما يحقق السلام النفسي والاستقرار الروحي.

المحور الرابع: دور العلاج النفسي:

يعتمد علاج اضطراب ازدواجية الشخصية في الأساس على العلاج النفسي المتخصص، والذي يساعد المريض على فهم ما مرَّ به من صدمات نفسية والتعامل معها بطريقة صحيحة.

ومن أهم أهداف العلاج النفسي في هذه الحالة:

- أ. مساعدة المريض على إدراك الصدمات النفسية التي مرَّ بها في ماضيه، وفهم تأثيرها على سلوكه وحياته اليومية.
 - ب. التمكن من التعامل مع الذكريات المؤلمة بطريقة صحية وآمنة، دون أن تسيطر عليه أو تعيقه عن أداء واجباته.
 - ج. تقوية الشعور بالهوية الشخصية، بحيث يستعيد المريض إدراكه لوحده الداخلية ويحقق الانسجام بين ذاته وسلوكه.
 - د. الوصول إلى قدر من التوازن النفسي بين الحالات المختلفة التي يعيشها، ليتكّن من ممارسة حياته اليومية بصورة طبيعية قدر الإمكان.
 - هـ. مراجعة الطبيب المختص عند الحاجة، لضمان متابعة دقيقة وتقديم الدعم الطبي والنفسي المناسب.
- وقد تستغرق هذه العملية وقتاً طويلاً؛ لأنها تتعامل مع جروح نفسية عميقة، لذلك يحتاج المريض إلى الصبر والدعم المستمر.
- ومن المهم أن يُرافق العلاج النفسي دعم روحي وتربوي، لأنَّ الإسلام يدعو إلى إصلاح النفس وتقويتها.

الخلاصة:

يتَّضح مما سبق أنَّ اضطراب ازدواجية الشخصية من الاضطرابات النفسية المعقدة التي قد تنشأ نتيجة صدمات نفسية عميقة، خصوصاً في مرحلة الطفولة، وما يرافقها من قسوة أو إهمال أو بيئة مضطربة تؤثر في تكوين الهوية.

الدرس العشرون: مرض الازدواجية الشخصية بين الأسباب والعلاج ١٩٣

ومن هنا تأتي أهمية الوقاية، والتي تبدأ بالتربية السليمة، وبناء بيئة أُسرية حاضنة وآمنة، والاهتمام بالصحة النفسية للإنسان منذ صغره، مع رصد العلامات المبكرة للاضطراب والتدخل السريع لطلب المساعدة المتخصصة، بما يسهم في التخفيف من آثاره ومعالجته قبل أن يتطوّر ويؤثّر في سلوك الفرد وحياته اليومية.

كما أنّ الجمع بين العلاج النفسي الحديث ووسائل التهذيب النفسي والروحي التي جاء بها الإسلام، من ذكر ودعاء وقراءة القرآن الكريم، يعين الإنسان على استعادة توازنه النفسي، ويمنحه القدرة على مواجهة الأزمات بثبات وصبر، مع تحقيق الانسجام بين قوله وعمله، وبين ذاته ومجتمعه.

وقد ورد عن أنيس النفوس، الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله الشريف: «الشديد من غلب نفسه»^(١)، وهذا يؤكّد أنّ محاربة اضطرابات النفس والسيطرة عليها، والسعي لبناء شخصية متوازنة، هو من أسمى أنواع الجهاد، الذي يرفع الإنسان ويعينه على الاستقامة في الدنيا والآخرة.

أسأل الله تعالى أن يشفي نفوسنا ويزيل عنا كلّ اضطراب ووجع، ويمنحنا القوة على مواجهة الصعاب بثبات، ويجعل قلوبنا مطمئنة وأرواحنا صافية، ويرزقنا الصحة والعافية التامة.

الخاتمة:

بعد استعراض هذا المنهاج الأخلاقي، يتّضح أنّ التربية الإسلامية تهدف إلى تهذيب النفس وبناء الشخصية المتوازنة التي تجمع بين العلم والعمل، والمعرفة والسلوك، والبُعد الروحي والعمل.

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة - الحر العاملي: ج ٢، ص ٢١٤.

فقد تناولت الدروس أبعاداً متكاملة للثقافة الإسلامية والوعي الرسالي، وسُبل صناعة المثقف المؤثر، وطرق مواجهة تحديات الحياة المعاصرة، ورسم بيئة أخلاقية سليمة في الأسرة والمجتمع، وصولاً إلى معالجة الأمراض النفسية والاضطرابات السلوكية كالازدواجية الشخصية والنفاق الديني، مع التأكيد على دور القرآن الكريم وتعاليم أهل البيت عليه السلام في بناء الذات وتثبيت السلوك القويم.

إنَّ الهدف الأسمى من هذه الدروس هو صقل النفس الإنسانية، وتحقيق الانسجام بين القول والفعل، وترسيخ الفضائل الإيمانية في حياتنا اليومية، ليكون الإنسان قدوة صالحة، والأسرة والمجتمع منبعاً للطمأنينة والرحمة والعدل.

ولابدَّ للشاب الطامح إلى مستقبل مشرق أن يجمع بين صفاء النفس واستقامتها، وبين الوعي الفكري الراشد، والسعي العملي الجاد، مستفيداً من توجيهات المربين وتجارب السابقين في ميادين الحياة، وما أكثر ما يفيض به تراث المعصومين عليهم السلام من زاد لا ينفد للسائرين؛ فهو روح تبعث العزائم، ونور يبذل ظلمات الحيرة، ومن تمسك بحبلهم المتين وعمل بوصاياهم المباركة كان أقرب إلى التوفيق، وأبعد عن الزلل والخسران.

كما أنَّ الجمع بين العمل بالمعارف النفسية الحديثة ووسائل التهذيب الروحي التي جاء بها الإسلام، من ذكر ودعاء وقراءة القرآن الكريم، يعين الإنسان على استعادة توازنه النفسي، ويمنحه القدرة على مواجهة الأزمات بثبات وصبر، مع تحقيق الانسجام بين قوله وعمله، وبين ذاته ومجتمعه،

الدرس العشرون: مرض الازدواجية الشخصية بين الأسباب والعلاج ١٩٥

فمحاربة اضطرابات النفس والسيطرة عليها، والسعي لبناء شخصية متوازنة، هو من أسمى الجهاد الذي يرفع الإنسان في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق، ويعيننا على تهذيب أنفسنا، وضبط سلوكنا، والعمل الصالح، ليكون أثر هذا الكتاب واقعاً عملياً ينعكس في أنفسنا ومجتمعنا، ويجعل حياتنا ومسعانا في خدمة الإنسانية تحت ظل الهداية الإلهية، وأن يكتب لهذا الجهد القبول عنده، وينفع به أبناءنا وشبابنا، ويجعله لبنة في بناء جيل مؤمن بصير، قوي الإرادة، راسخ الخطى، عامل بما عليم، ومتوجّه إلى الله سبحانه بقلب لا يزيغ، وهمّة لا تفتر.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

* * *

الفهرس

المقدمة	٣
الدرس الأول: الثقافة الإسلامية والثقافة الاستهلاكية في عصر المعلوماتية	٥
في الثقافة الإسلامية:	٨
أمّا في الثقافة الاستهلاكية:	٨
وفي الثقافة الإسلامية:	٨
أمّا في الثقافة الاستهلاكية:	٨
أولاً: تهذيب العلاقة مع الأجهزة:	٩
ثانياً: ملء الفراغ قبل الانشغال بالكلام:	١٠
ثالثاً: التحرّر من وهم:	١١
رابعاً: تأسيس البديل الأخلاقي:	١١
خامساً: إعادة قدسية الوقت:	١٢
الدرس الثاني: القرآن مدرسة الحوار	١٥
كيف يؤتي الحوار ثماره الياصرة؟	١٥
النقطة الأولى: تصحيح النية قبل الشروع في الحوار:	١٦
توجيهات عملية وفق منهج أهل البيت ﷺ للحوار اليومي:	١٧

١٩٨ دروس في الأخلاق

- ١ - ابدأ الحوار بنية الحق لا الانتصار للرأي: ١٧
- ٢ - استقبل الحق مهما جاء من غيرك: ١٧
- ٣ - راقب قلبك قبل لسانك: ١٧
- ٤ - اجعل كل كلمة صادقة وخالصة لله ﷻ: ١٧
- النقطة الثانية: الإصغاء الواعي أساس الحوار المثمر: ١٨
- النقطة الثالثة: تهذيب الأسلوب قبل عرض الفكرة: ١٩
- النقطة الرابعة: الكرامة الإنسانية ميزان الحوار: ٢٠
- توجيهات عملية: ٢٠
- النقطة الخامسة: الحكمة في معرفة متى نُكمل الحوار ومتى ننسحب: ٢١
- الخلاصة: ٢٢
- الدرس الثالث: كيف تكون صناعة المثقف والوعي بمسؤوليته الثقافية
الرسالية؟ ٢٣
- المحور الأول: ماهية المثقف وحدود وظيفته في الأمة: ٢٤
- المحور الثاني: المرتكزات الأساس في صناعة المثقف وبناء وعيه: ٢٥
- أولاً: الإيمان أساس الثقافة: ٢٥
- ثانياً: البصيرة والحكمة قبل التصرف: ٢٦
- ثالثاً: التواضع العلمي وضبط النفس: ٢٦
- المحور الثالث: المسؤولية الشرعية والأخلاقية للمثقف: ٢٧
- ومن أبرز أبعاد المسؤولية الشرعية والأخلاقية للمثقف: ٢٧
- ١ - تصحيح الانحراف لا تبريره: ٢٧

الفهرس.....	١٩٩
٢ - حفظ وعي الناس لا استغلاله:.....	٢٨
٣ - أن يكون قدوةً بسلوكه قبل خطابه:.....	٢٨
المحور الرابع: أخلاق المثقف في زمن الفتن والتحديات المعاصرة:	٢٨
ومن أبرز أخلاق المثقف الرسالي في مواجهة التحديات المعاصرة:	٢٩
١ - الحكمة في الطرح:	٢٩
٢ - حفظ وحدة المجتمع:	٢٩
٣ - اجتناب الإثارة والتشهير:	٢٩
٤ - تقديم الإصلاح على الانتصار الشخصي:	٢٩
الخاتمة:	٣٠
الدرس الرابع: مصاعب الحياة بين الآهات والمعالجات لرسم بوارق الأمل .	٣٣
المحور الأول: تحديد طبيعة المشكلة أو الألم:	٣٤
المحور الثاني: الإنسان بين الانكسار الداخلي وقوة الصمود:	٣٦
المحور الثالث: المعالجة الأخلاقية للآلام لا مجرد تفسيرها:	٣٨
بين التفسير والمعالجة:	٣٩
معالم المعالجة الأخلاقية العملية:	٤٠
المحور الرابع: الصبر الواعي بوصفه طاقة تغيير لا حالة انتظار:	٤١
المحور الخامس: صناعة الأمل من داخل المحنة:	٤٢
الدرس الخامس: رسالة القلم - كيف نحصل على جيل قارئ؟	٤٥
المقدمة:	٤٥
بيان الأمور الثلاثة في صناعة جيلٍ قارئ:	٤٦

٢٠٠	دروس في الأخلاق
٤٧	الأمر الأول: المنهجية الصحيحة في المطالعة:
٤٧	أولاً: القراءة الموجهة:
٤٨	ثانياً: القراءة التحليلية:
٤٨	ثالثاً: تدوين الملاحظات وضبط الفوائد:
٤٨	رابعاً: المراجعة وربط الأفكار:
٤٨	الأمر الثاني: معالجة العزوف عن القراءة:
٤٩	الأمر الثالث: آثار القراءة في صناعة الجيل الواعي:
٤٩	ومن أبرز آثارها العملية:
٥٠	الخلاصة:
	الدرس السادس: الحياء والعفة في زمن الانفتاح الرقمي (منظور قرآني وتربوي)
٥٣	
٥٣	المقدمة:
٥٦	المحور الأول: العوامل المؤثرة في ترسيخ الحياء والعفة كسلوك عملي:
٥٦	١ - القدوة العملية:
٥٦	٢ - المراقبة الذاتية:
٥٦	٣ - تعزيز القيم الأخلاقية:
٥٧	٤ - البيئة الحاضنة:
٥٧	المحور الثاني: كيفية التعامل مع المحتوى غير الأخلاقي عند ظهوره:
٥٨	١ - الوعي الفوري والخيار الواعي:
٥٨	٢ - الإعراض والتحويل:

الفهرس.....	٢٠١
٣ - المراجعة الداخلية والتقويم الذاتي:	٥٩
٤ - تعزيز القدوة العملية:	٥٩
المحور الثالث: دور الأسرة في المتابعة الواعية لا في التجسُّس:	٦٠
المحور الرابع: دور الخطاب الديني في التوجيه الواقعي:	٦١
المحور الخامس: صناعة القدوة في البيت والمجتمع:	٦٣
المحور السادس: خطوات عملية لتثبيت العفة في السلوك اليومي:	٦٤
الخطوة الأولى: المراقبة الواعية للنفس:	٦٤
الخطوة الثانية: تنظيم البيئة اليومية، ولا سيما الرقمية منها:	٦٥
الخطوة الثالثة: ملء الفراغ بما هو نافع:	٦٥
الخطوة الرابعة: صيانة الخواطر قبل انحدارها إلى السلوك:	٦٥
الخطوة الخامسة: الاستعانة بالله تعالى واستدامة الصلة به:	٦٦
الدرس السابع: رؤى الحياة في نهج البلاغة (اللّين والطّيب)	٦٧
المقدمة:	٦٧
محاوّر الدرس:	٦٨
اللّين قوّة إصلاح لا ضعف:	٧٠
الممارسات العملية للّين في منهج الإمام علي عليه السلام:	٧١
١ - ضبط النفس قبل القول والفعل:	٧١
٢ - الرحمة العملية في العلاقات:	٧١
٣ - الموازنة بين الحزم والرفق:	٧١
٤ - القدوة العملية:	٧٢

٢٠٢	دروس في الأخلاق
٧٢	٥ - تحويل المبادئ إلى ممارسة يومية:
٧٢	حدود اللين وضوابطه بين الحكمة والمداهنة في الواقع المعاصر:
٧٤	انعكاسات اللين والطيب على الاستقرار النفسي والاجتماعي:
٧٥	ومن منظور عملي، فإن تطبيق اللين والطيب يومياً يتجلى في:
٧٥	١ - ضبط النفس عند مواجهة الاستفزاز أو المواقف المقلقة:
٧٥	٢ - ممارسة الرحمة العملية داخل الأسرة:
٧٦	٣ - المراعاة في التعاملات العامة والمجتمعية:
٧٦	٤ - تحويل المبادئ الأخلاقية إلى سلوك يومي عملي:
	الدرس الثامن: كيف نصنع بيئة أخلاقية في المجتمع الإنساني من المنظور القرآني؟
٧٧	
٧٧	المقدمة:
٧٨	الأمر الأول: إصلاح الفرد أساس إصلاح المجتمع:
٨٠	الأمر الثاني: ترسيخ قيمة العدل والإنصاف:
٨٤	الأمر الرابع: بناء العلاقات على الرحمة والتكافل:
٨٥	الأمر الخامس: دور القدوة الصالحة في صناعة البيئة الأخلاقية:
٨٧	الخلاصة:
٨٩	الدرس التاسع: كيف نخطط للمستقبل وكيف نواجه الأخطار المستقبلية؟ .
٩٠	المنهجية العامة:
٩١	قراءة المستقبل من خلال السنن الإلهية لا من خلال الظنون:
٩٢	بناء الوقاية قبل وقوع الخطر:

الفهرس.....	٢٠٣
ترسيخ الثبات القيمي في زمن التحوّلات:.....	٩٤
تحويل الأزمات من حالات شلل إلى فرص مراجعة وإصلاح:.....	٩٦
تربية الإنسان على المسؤولية لا على الهروب:.....	٩٧
الخلاصة:.....	١٠٠
مقوّمات العمل الواعي:.....	١٠٠
الدرس العاشر: الألفة والتآلف في العلاقات الاجتماعية (منظور قرآني تربوي)	
.....	١٠٣
محاوّر الدرس:.....	١٠٤
علاقة التوحيد بوحدة القلوب وتآلف المجتمع:.....	١٠٤
أثر تركية النفس في ترسيخ روح الألفة:.....	١٠٥
الأنانية وحبّ الذات كعائق أمام التآلف:.....	١٠٦
الألفة داخل الأسرة بوصفها النواة الأولى للمجتمع:.....	١٠٨
معالجة أسباب التنازع والاختلاف في منظور أهل البيت عليهم السلام :.....	١١٠
١ - ردّ الخلاف إلى ميزان الحقّ لا إلى الانتصار للنفس:.....	١١١
٢ - ضبط اللسان واجتناب التصعيد الكلامي:.....	١١١
٣ - إحسان الظنّ وتجنّب سوء التأويل:.....	١١١
٤ - تقديم الإصلاح على المكابرة:.....	١١٢
٥ - جعل الأخوة الإيمانية سقفاً حاكماً للخلاف:.....	١١٢
الخلاصة:.....	١١٣
إنّ تطبيق هذه المبادئ عملياً يتطلّب:.....	١١٣

٢٠٤ دروس في الأخلاق

الدرس الحادي عشر: المرشد الديني مظهر الأخلاق في سطور الكلمات التربوية

١١٥.....

١١٥..... بقصة موسى والخضر عليهما السلام

١١٥..... المقدمة:

١١٦..... ١ - التواضع في طلب العلم وأدب المتعلم:

١١٦..... ٢ - الصبر أساس الانتفاع بالتربية:

١١٧..... ٣ - حكمة المرشد في التدرُّج وعدم التعجُّل في البيان:

١١٧..... ٤ - خطورة الاعتراض قبل اكتمال الفهم:

١١٩..... ٥ - حفظ العلاقة عند وقوع الاختلاف:

١٢٠..... الخلاصة:

١٢٠..... ومن النصائح العملية المستفادة:

١٢٣..... الدرس الثاني عشر: كيف تكون عوامل النجاح الاجتماعي؟

١٢٣..... المقدمة:

١٢٤..... الصدق والأمانة أساس النجاح الاجتماعي:

١٢٥..... ضبط النفس أساس الاستقرار الاجتماعي:

١٢٦..... الوفاء بالوعود والالتزامات:

١٢٦..... التعاون وروح المشاركة:

١٢٧..... الاحترام ومراعاة حقوق الآخرين:

١٢٨..... الخلاصة:

١٢٩..... ولتطبيق هذه المبادئ:

الفهرس.....	٢٠٥
الدرس الثالث عشر: كيف تكون أولويات الطرح في الخطاب الديني؟	١٣١
المقدمة:	١٣١
١ - تقديم الأصول على الفروع:	١٣٢
٢ - مراعاة حال المخاطب وواقعه:	١٣٣
٣ - اعتماد مبدأ الأهم فالمهم في القضايا المطروحة:	١٣٤
٤ - التدرُّج في الطرح وعدم تحميل المتلقي ما لا يحتمله:	١٣٥
الخلاصة:	١٣٧
الدرس الرابع عشر: الصداقة بين الجنسين تحليل واقعي أخلاقي	١٣٩
المقدمة:	١٣٩
فهم طبيعة العلاقة وأهدافها:	١٤٠
الضوابط الأخلاقية للمعاملات:	١٤١
التصرُّف العملي لتجنب الانزلاقات:	١٤٣
الأثر الإيماني والاجتماعي للتواصل المحرَّم:	١٤٤
وفي الختام:	١٤٥
الدرس الخامس عشر: الاستبداد الديني والتعصُّب - المنشأ والآثار	١٤٧
المقدمة:	١٤٧
منشأ الاستبداد الديني والتعصُّب:	١٤٨
السلوكية والاجتماعية للاستبداد والتعصُّب:	١٥٠
سبل الوقاية والمعالجة العملية:	١٥١
وفي الختام:	١٥٢

٢٠٦	دروس في الأخلاق
١٥٥	الدرس السادس عشر: الحالة الدينية ومرض الغرور
١٥٥	المقدمة:
١٥٦	منشأ الغرور الديني:
١٥٩	آثار الغرور الديني على الفرد والمجتمع:
١٦٠	التطبيق السلوكي العملي لمعالجة الغرور:
١٦١	الخلاصة:
١٦٣	الدرس السابع عشر: الاغتراب النفسي - أزمة العصر
١٦٣	المقدمة:
١٦٤	منشأ الاغتراب النفسي:
١٦٥	آثار الاغتراب النفسي:
١٦٧	سبل الوقاية والمعالجة العملية:
١٦٩	الخلاصة:
١٧٣	الدرس الثامن عشر: المثالية فكرةٌ حاضرة في الأذهان، غائبة عن الواقع
١٧٣	المقدمة:
١٧٣	منشأ بقاء المثالية في الذهن دون الواقع:
١٧٤	آثار المثالية غير العملية في حياة الإنسان:
١٧٥	المنهج الصحيح في التعامل مع المثالية:
١٧٦	تطبيقات عملية لتحويل المثالية إلى واقع:
١٧٧	الخلاصة:

الفهرس.....	٢٠٧
الدرس التاسع عشر: ظاهرة النفاق الديني بين العوامل والآثار.....	١٧٩
المقدمة:.....	١٧٩
العوامل المؤدية إلى النفاق الديني:.....	١٨١
آثار النفاق الديني على الفرد والمجتمع:.....	١٨٢
سبل الوقاية والمعالجة العملية:.....	١٨٣
تطبيقات عملية للتخلص من النفاق:.....	١٨٥
الخلاصة:.....	١٨٥
الدرس العشرون: مرض الازدواجية الشخصية بين الأسباب والعلاج.....	١٨٧
المقدمة:.....	١٨٧
المحور الأول: الوقاية من أسباب الاضطراب:.....	١٨٨
أ. توفير الأمان النفسي للأطفال:.....	١٨٨
ب. الابتعاد عن العنف في التربية:.....	١٨٨
ج. الاهتمام بالمشاعر النفسية للأبناء:.....	١٨٩
د. تجنب التناقض في التعامل مع الأبناء:.....	١٨٩
المحور الثاني: ملاحظة العلامات المبكرة للاضطراب:.....	١٨٩
المحور الثالث: خطوات عملية للتعامل مع الحالة:.....	١٩٠
أ. طلب المساعدة المختصة:.....	١٩٠
ب. توفير الدعم الأسري:.....	١٩٠
ج. تنظيم الحياة اليومية:.....	١٩١
د. تقوية الجانب الإيماني:.....	١٩١

٢٠٨	 دروس في الأخلاق
١٩١	 المحور الرابع: دور العلاج النفسي:
١٩٢	 ومن أهم أهداف العلاج النفسي في هذه الحالة:
١٩٢	 الخلاصة:
١٩٣	 الخاتمة:
١٩٧	 الفهرس
